أحسن القصص

تأليف

محمد عطية الابراشي
المفتش بوزارة المعارف

محمود السيد عبد اللطيف
الأستاذ بدار العلوم

حسن محمد جوهر
ناظر مدرسة فؤاد الأول
الثانوية بسوهاج

في سبيل الوطن

وزارة المعارف العمومية

حقوق هذه الطبعة محفوظة للوزارة

بسم الله الرحمن الرحيم

لله تعالى خالصُ الحمدِ ، وخالِدُ الشكر ، ولنبيه الكريم وآله وصحبه الأطهار ، أفضَلُ صلاة ، وأكمَلُ تسليم .

(وبعد) فقد وَجَدْنا حاجةَ أبنائنا إلى القِصَص شديدة ، فوضعنا طرائفَ من (أحسن القِصَص) الشرقية والغربية ، فى كتب صغيرة ، توَخَّينا فيها تربية الخيال ، وتَفْصِيلَ الحِكْمة ، والإلمامَ بشىء من عادات الناس وطباعهم ، فى وطنيتهم وشجاعتهم ، وحَضَرِهِم وبَدَاوَتِهم .

فجاءت قِصَصُنا رافلةً فى ثوب قَشِيب ، مَحْلُوَّةً فى أحسن صورة ، تَرْغَبُ النفوسُ فى مطالعتها ، واستِقْصاءِ محاسنها .

وأَمَلُنا أن يَجِدَ أبناؤُنا فى هذا المورِدِ العَذْبِ السائغ ما يُرْوِى ظمأهم ، ويَشغلُ أوقاتَ فراغهم .

نسأل الله تعالى أن يُحَقِّقَ بها الأمل ، ويَجْعلها من خَيْرِ العمل ، إنه أكرمُ مسئول .

المؤلفون

القصة الأولى

وَطَنِيَّةُ لِيـــدْيَا

قصة أمريكية

فى شتاء سنة ١٧٧٨ م ، كان الجيشُ البريطانىُّ يحتلُّ مدينـةَ (فِيلادِلْفِيا) بأمريكا ، وكان الجنودُ البريطانيُّون يَسيرُون فى شَوارِعِها لِيَحرُسُوا الأماكنَ التى يُمكِنُ دخولُ المدينةِ منها . وكان الضُّباطُ يَسْتَوْلُون عَلَى أَحْسَنِ المنازِلِ للإقامةِ بها ، دُونَ أَن يَحْفِلوا[1] بأَصْحَابها أَوْ يَسْتأْذِنُوهم .

وَعَلَى بُعْدٍ مِنَ المدينَةِ كان الجنُودُ الأَمريكيون يُقيمون على أَسْوَإِ حال ؛ فَقَدْ كانت مَلَابِسُهم ممزَّقَةً لا تَدْفَعُ عنهم غائِلَةَ البَرْدِ ، وكَانُوا لا يَجِدون الضَّرورىَّ من الغِذَاء .

وهم مع ما كانُوا يُعَانُونه من الجوع ، ويُقَاسُونه من بَرْد الجَو ، قَدْ ظَلُّوا فى مواقِفِهم من أعدائهم الإنجليز ، لَمْ تَفْتُرْ[2] عَزَائِمُهُمْ .

---

(١) يبالوا . (٢) تضعف .

وكان الجنودُ البريطانيون مُتمتِّعين بالراحةِ فى السَّكْنَى ، وبِوَفْرَةِ الطَّعَامِ ، وَكِفَايَةِ الملابس .

وَكَانَ كثيرٌ مِنْ سُكَّانِ فِيلادلفيا يَوَدُّون بَذْلَ المَعُونَةِ لإخوانِهم المُحاربين ، المطالبين باسْتِقْلَالِ بلادِهم ، وَبجَلاءِ أعدائِهم ، ولكِنَّ حَرَكَاتِهم كانتْ مَعْدُودَةً عليهم ، وكانَتْ عَينُ العدُوِّ لا تَغْفُلُ عَنْهم ، وكان يُحَالُ بَيْنَهم وَبَيْنَ ما يَشْتَهون من مَعونَةِ بنى وَطنهم ، فِي حين أنَّهم كانوا يُجْبَرُون على مُساعَدَةِ أعدائِهم البريطانيِّين .

وكانَ مِنْ بَيْنِ هؤلاءِ السكَّانِ «وِلْيام دَارَا» ، وهو مدرسٌ هادئٌ وَديعُ الأخلاقِ ، لا يَميلُ إلَى الإيذاء ، يَعِيشُ مَعَ زَوجتِه «لِيدْيا» فى بيتٍ رَحِيب ، ذِى طَبَقَةٍ وَاحِدَةٍ ، سَكَن فى شطْرِه ، وجَعَل شطرَه الآخر مَدرسةً . وقد اسْتَولى البريطانيُّون من ذلكَ البِنَاء على حُجْرةٍ كبيرةٍ خَلْفَه ، وَاتَّخَذَها القائدُ «هَاو» والضُّباطُ الذين مَعَه مَكاناً لاجْتماعاتِهم السِّرِّيةِ ، التى يَعْقِدُونَها لِلشُّورَى ، وَلِبَحْثِ حَرَكَاتِ الجنود فى فِيلادِلْفِيَا ، وَالتَّفكيرِ فيما يتعلَّقُ بالشُّئونِ الحَرْبِيةِ .

وكانَ « وليام دَارَا » وَأُسْرَتُه مِمَّنْ يُؤْثِرُون الدَّعَةَ والهدوء ، فَلَمْ يُعْلِنوا حَنَقَهم عَلَى أَعدائِهم الإنجليز ، فَحَسِبَ هؤلاءِ أَنَّ

تِلْكَ الأسرَةَ تَشْعُر بِشُعورِهِم ، وَتُخْلِص لَهُمْ ، فَأَمِنُوا جَانِبَها ، واطْمَأَنُّوا إليها ، ولم يُخَامِرْهُمْ رَيبٌ فى إخْلاصِها .

وفى لَيْلَةٍ من لَيالى دِيسمبرَ ، طَرَقَ أَحَدُ الضُّباطِ البريطانيِّين بَابَ الدارِ ، وهو بِمَلابِسه الرَّسْمِيةِ ، فَذَهَبَتْ « لِيدْيَا » لِترى مَنْ بالْبَابِ ، فَقَالَ الضابطُ : « هَلْ السيدة لِيدْيَا بِالمنزلِ ؟ » فأَجَابَتْ : « أَنَا لِيدْيَا دَارَا . » قال الضابطُ : « لقد حَضَرْتُ لآمُرَكِ بإعْدادِ مَكانِ الاجتماعِ ، وَتَدْفِئَتِهِ وَإِضَاءَتِه هـذهِ اللَّيلَة ؛ فإنَّ كَثِيرين مِن الضُّباطِ سَيحْضُرون هُنَا ، وَيَجِبُ أَن يَكُونَ كلُّ شَىءٍ مُعَدًّا فِى السَّاعَةِ السَّابعَةِ » . فأَجَابَتْ ليديا : « سأُعِدُّ كلَّ شَىءٍ كمَا تَرْغَب » .

ثم قال الضابطُ : « لاحِظى أَنَّنا لا نَوَدُّ أَن يكونَ أَحدٌ من أُسرَتِك بقُرْبِ المكانِ ، يَسْتَرِقُ السمعَ ، ليعرفَ شيئًا مِمَّا نَتَحَدَّثُ بهِ . إنى أَنتظرُ أَن تَتَنَاولُوا عشاءكم مُبْكِرين ، وَأَن يذهب كلٌّ إلى فِراشِه قبلَ وُصولِ الضُّباطِ » . فقالت ليديا : « أَلا تَرَى أَنَّ فى الذَّهابِ إلَى الفِرَاشِ فى السَّاعةِ السَّابعَةِ إنْكَارًا ؟ » فَقَالَ الضَّابطُ : « لَقَدْ أَصْدَرْتُ أَمْرِى ، فَاسْمَعِى وَأَطِيعِى أَيَّتُهَا السَّيدة ، وَحِينَمَا يَنْتَهِى الاجْتِمَاعُ سَأَطْرُقُ بَابَكُمْ لتَسْتَيْقِظُوا ، وَتُطْفِئُوا النارَ والشمْعَ ، وَتُغْلِقُوا المنْزِلَ » . فقالَتْ لِيديا : « سَمْعًا وَطَاعةً » .

بدأتْ « لِيديا » تُعِدُّ المكانَ لاجْتِماعِ الضُّبَّاطِ ، تَكْنُسُ أرْضَهُ ، وَتُنَظِّف أثاثَه ، وتُوقِدُ النَّارَ ، وتُشْعِل الشَّمْعَ . بَيْـــدَ أنَّ قَلْبَهَا كان يَجِيشُ بِعاطِفَةِ الإخْلَاص والتَّضْحِيَةِ لِإنْقَاذِ الوطَنِ ، وسَمْعَهَا يَهْتِفُ به هاتِفُ الواجبِ الوَطَنِيِّ المقدَّسِ ، فَأخَذَتْ تُسائِل نَفْسَها : « أأنَا أمَةٌ يَجِبُ أنْ أُطِيعَ وَأنْ أخْضَعَ لأوَامِرِ ذَلكَ الضَّابِطِ ؟ وَبِأىِّ حَقّ يُسَيْطِرُ البريطانِيُّونَ عَلَى البـلادِ ، على حينِ أنَّ الأمْرِيكيينَ قد حرِمُوا حَقَّهُم الطَّبَعِيَّ من الحرّيةِ والاستقلالِ ؟ »

وكانتْ « ليديا » لَا تَرْغَبُ فى الحَرْبِ ، ولكن لَمَّا دَارَتْ رَحَاها أخَذَتْ عَقيدتُها تَتَغَيَّر ، فكانَتْ تَتَمَنَّى النَّصرَ لِبَنِي وَطَنِها جُنودِ « وَاشنطونَ » الأمريكِيين ، فَوطَّنَتْ نَفْسَها ، وَوَطَّدَتْ عَزِيمَتَهَا ، عَلَى ألَّا تَقومَ بِمُسَاعَدَةٍ لِلْبريطانِيِّين بَعدَ ذَلكَ ، مَهمَا تَكُنِ النَّتيجةُ .

أتَى المَساءُ وأعَدَّتْ « لِيـــديَا » حُجرةَ الاجْتماعِ كما يَهوَى البريطانيون ، وَتَناوَلَتْ أسرةُ «دَارا» عَشَاءها مُبْكِرَةً ، وَأوَى الأطفالُ والخدمُ إلى حُجُراتِ النومِ قَبلَ الساعةِ السابعةِ ، وَسكَنَ كُلُّ صوتٍ فى المنْزِلِ قَبْلَ مَقْدَمِ الضُّباطِ . فَلَمَّا وَصَلُوا فَتَحَتْ لَهم « لِيديَا » البابَ ، وَتَقَدَّمَتْهُم إلى حُجرةِ الاجْتِماعِ ، ثُمَّ عَادتْ أدْراجَها إلى

فَرْشِهَا فى حُجرتِها الخَاصَّةِ ، وأَطْفَأَتْ شمْعتَهَا ، ولمْ تَخْلَعْ مِن ثِيابِها غَيرِ الحِذاء ، واسْتَراحَتْ عَلَى أريكةٍ فى الحجرة .

وَكانَتْ حجرةُ « لِيدْيَا » قَريبة جِـدًّا مِن حُجرةِ الاجْتماعِ ، فَاسْتَطاعَتْ أن تَعِيَ كلَّ كَلِمةٍ نَطَقَتْ بها شِفَاهُهم ، وانْطَلقَتْ بهَا ألْسِنَتهُم ، فأقضَّ مَضْجَعها ، وطَرَدَ نَوْمَها حَدِيثُهم فى الحَرْب ، ونَالَ مِن نَفْسِها مَا أحسَّتْ بِهِ مِن الخَطَرِ الشَّدِيدِ ، الَّذِى يُهَدِّدُ وَطَنَها العَزِيزَ ، وإخْوَانَها الأمْرِيكيين ، وَقَدْ سَمِعَتِ الضُّباطَ يُرَدِّدُون اسمَ « واشنطون » فى حجرةِ الاجتماع .

شَـعَرَتْ « لِيديا » بالْقَلَقِ الشَّدِيد ، ولم يُقْنِعْها أَنْ تُصِيخَ إلى حديثِهم وَهِىَ فى حجرةِ نَوْمِها ، فَفَارَقَتْها ، وخَطتْ بهدوءٍ حتَّى الْتَصَقَتْ أُذُنُها بِبابِ حُجرةِ الاجتماعِ ، وأخذتْ تَسْتَمِعُ لِكُلِّ ما يَدورُ بين الضُّبَّاطِ من حَديثٍ . وَكانتْ رَغْبَةُ كلٍّ منهمْ فى أن يَكونَ صاحبَ الكَلِمةِ ، تَجْعلُهم يَنْطِقُون جميعاً فى لَحْظَةٍ وَاحِدةٍ ، وَلكنَّ رَئِيسَهم لم يُطِقْ صَبْرًا عَلَى هـذهِ الحالِ ، فَضَرَبَ بيده على الْخِوَانِ ، وأمرَهم بِالْمحافظةِ على النِّظَامِ ، فَسَكتُوا سَكْتَةَ رَجُل واحدٍ ، والْتَزَمُوا الصَّمْتَ كأَنَّما على رُءوسِهمُ الطَّيرُ . وهدأت الحجرةُ ، فَانْبَرَى أحدُهُم

مُعْلِنًا أنّ لَدَيهِ أمراً مِن القائد « هَاو » يُريد أنْ يَقرأه عَلَيْهِم .

وكانتْ « ليديا » تصغِى كلَّ الإصغاء ، فَسَمِعتْ أوامرَ القائد « هَاو » بأنَّ الجنودَ البريطانيين يَجبُ أن يَكونوا مُسَلَّحِينَ ومُسْتعدِّينَ للسيرِ فى مَساء اليوم التالِى ، كما يَجبُ أن يسيروا فى طرقٍ كذَا ، وبشكل كَذا ؛ كَىْ يُحِيطوا فَجْأَةً بجَيْشِ « واشنطونَ » الذى كان مُعَسْكِراً فى « هوَيْت مَارْش » .

فَلمْ تَنْتظِرْ « لِيدْيا » لِتَسْمعَ شيئاً آخرَ بعدَ ذلكَ ، وَعادتْ بكلِّ هدوءٍ إلى حجرتِها ، فاسْتَلْقَتْ عَلَى أريكتِها كما كانَتْ . وَحينَئِذٍ أَحَسَّتْ بالخطرِ العظيمِ ، وَالْخَطْبِ الْجَسِيمِ ، الَّذى يُهَدِّدُ إخوانَها وَوَطنَها !. فكَيْفَ تُفْضِى إلَيهِمْ بمَا يُدَبَّرُ فى الْخَفَاءِ لِلْقَضَاءِ عَليهم ؟

وبعدَ ساعَتينِ ، سَمِعَتِ الضُّبَّاطَ يَخْرُجونَ إلى منازِلِهم ، وَقد وَقفَ رَئيسُهم ببابِ « لِيدْيا » ثمَّ طَرَقهُ ، فَرَاءَتْهُ[1] أَنَّهَا نَائِمَةٌ . فَقَرَعَ البابَ ثانيةً ، وَثالثةً . فأَجابَتْهُ بمَا يُشْبِهُ صَوْتَ المُسْتَيْقِظِ مِنْ فَوْرِه ، حتى لا يشكَّ فى أمرِها . فأَخْبَرَها أنَّهُمْ قد غادَرُوا الحجرةَ ، وأَنَّ عليها أن تُغْلِقَهَا بعدَ أن تُطْفِئَ النورَ .

---

(١) أظهرت له .

أَرِقَتْ « ليديا » طولَ لَيْلَتِها ، وَلم تَذُقْ طَعْمَ النَّوْم ، وَشَعرَتْ بِأَنَّ وَاجِبًا ثقيلًا قَدْ أُلْقِيَ عَلَى عاتِقِها . فقَدْ صارَ مِن اوَاجبِ عَليها أَنْ تعملَ جُهْدَها لإِنْقاذِ الأَمْرِيكيين . وَلكنْ كَيفَ تُنْقِذُهُم ؟ وَكيفَ تُساعِدُهُم ؟ إِنَّها تعرفُ خُطَّةَ الجيشِ البريطانى . ولكنْ كيفَ تُوَصِّلُها إِلى « واشِنْطونَ ؟ »

فكَّرَتْ فى كثيرٍ مِن الطُّرُق ، ولكنَّ بعضَها كانَ مُستَحيلاً ، وَبعضَها الآخرَ كانَ ذَا خَطرٍ شديدٍ . وَأَخيرًا طَلَعَ الفَجْرُ ، وَأَشْرَقَ نورُ الصَّباحِ ، فَخطرَتْ بِبالِها فكرَةٌ سارَّةٌ تُمَكِّنُها مِن تَبْليغِ الرِّسالةِ ، فقالَتْ فى نَفْسِها : « سَأُنَفِّذُها دُونَ تَرَدُّدٍ ، وَإِنَّنى لَعلَى أَتَمِّ الاسْتِعدادِ لأَنْ أَفْدِىَ بِلادِى بِرُوحى وَحَياتِى » .

وَبعد أَن تبلَّغتْ بقليلٍ مِن الزَّادِ ، قالَتْ لِزَوْجِها « وِليام » : « إِنَّ الدقيقَ قَدِ انْتَهَى ، وَإِنِّى لَذَاهِبَةٌ إِلى الطَّاحونة فى قرية « فرَانْكفُورْدَ » لأُحْضِرَ حاجَتَنا منهُ » .

فأَجابَ الزَّوْجُ قائلاً : « ليديا ! يَجبُ أَلاَّ تَذْهَبِى إِلى « فرَانْكفُورْدَ » فى مِثْلِ هَذا اليوْمِ . وكيفَ تَرْكَبين اثنَىْ عَشَرَ ميلاً فى الذهابِ وَالإِيابِ ، وَتَتَعرَّضينَ فى أَثْنائِها للبرْدِ القارِسِ ، وَالرِّيحِ العَاصفِ ؟ أَلاَ تَسْتَطِيعينَ أَن تُرْسِلى الخادمَ بدلاً مِنك ؟ » فأَجابَتْ :

« لا يا وِليام ، إذَا كَانَ البردُ شديداً عَلَيَّ ، فإنهُ لَكذَلكَ عَلَى الخادمِ . لقَدْ صمَّمْتُ عَلَى أنْ أذْهبَ لِإحْضارِ الدَّقيقِ بنفسِي » .

وَكان « وليامُ » يَعْلَمُ بالتَّجْرِبَةِ أنهُ لَا فائدَةَ مِن مُعارضةِ « ليدْيا » ، وَأنهُ مِن العَبَثِ مُحاوَلَةُ إقْناعِها بغَيرِ ما تَرَاهُ ؛ لِأنَّها إذَا عَزَمَتْ عَلَى شيءٍ قامَتْ بتَنْفيذِهِ ، مَهْما تَلْقَ من المتاعبِ وَالمصاعِب ، فَلم يُبْدِ اعْتِرَاضاً . وَبَعْدَ أن انْتَهى من غَدائهِ ، ذَهبَ بهدوءٍ إلى مَدرستهِ ، ليقُومَ بتعليمِ تلاميذِهِ .

رَكِبَتْ « لِيدْيا » فرَسَها ظُهْرًا — وَمَعَها جَوازُ المرُورِ بالْخُطوطِ البريطانيَّةِ العسكريةِ — فى طَريقِها إلى « فرَانْكفُورْدَ » ، وَأخَذتْ مَعها كيسًا فارِغًا لتملَأهُ دَقيقا ، وَكانَتْ « لِيدْيا » تَعرِفُ الطَّريقَ حَقَّ المعرِفةِ ؛ لِأنَّها سارَتْ فيهِ غيرَ مرَّةٍ ، كمَا كانَتْ تَعْرِفُ جَيِّدًا « هوَيْت مَارْش » ، حَيْثُ يُعَسْكِرُ الجيشُ الأمْرِيكِيُّ بالْقُرْبِ مِن « فرَانْكفُورْدَ » .

ذهبَتْ « لِيدْيَا » مُسْرِعَةً إلى الطَّاحونة ، فوَجَدَتِ الدَّقيقَ غيرَ مُعَدّ ، وَذلكَ ما كانَتْ تَتَوَقَّعُهُ وَتَبْتَغيه ، فأَوْصَتْ بإعْدَادِ ما تَحْتاجُ إليهِ حتى تَعُودَ ، وَتركتِ الكيسَ الفارِغَ ليُملأَ لهَا دَقيقًا ، ثم سارَتْ

عَلَى قدَمَيْهَا نَحْوَ الْمُعَسْكَرِ الأَمْرِيكِيِّ فى « هوايت مَارْش » ، فقابلتْ بعد قليلٍ القائدَ « كريجَ » من عُيون القائد العام « وَاشنْطونَ » ، وكانَ راكباً جوَادَه ، وَمَعَهُ طليعةٌ من الجُنُودِ ، فعرفَها ، وقالَ لها : « ما الذى أَتَى بِكِ إِلَى هُنَا فى مِثلِ هـذا اليومِ يا ليدْيَا ؟ » فأَجابَتْ : « أَيُّهَا الصديقُ « كريج » ، أنتَ تَعْلَمُ أَنَّ ابنى فى جَيْشِ « جُورج واشنطونَ » وإنَّ قلبى لَيحِنُّ إلى رُؤْيته » . ثم قالتْ بصوتٍ مُنْخَفِضٍ : « إِذَا نَزَلْتَ عَنْ جوادِكَ ، وَسِرْتَ مَعِى قليلاً ، حَدَّثْتُكَ بِما أَحْضَرَنى إلى هُنا اليومَ » .

فنَزَلَ الْقائدُ « كريجُ » ، وقَادَ جوادَه ، وسارَ مَعَ « لِيدْيا » ، فأَخبرتْه الخبرَ ، وَأَعْلَمَتْهُ خُطَّةَ الجيشِ البريطانىِّ ، وَرَجَتْه أَنْ يستعملَ حِكمتَهُ ، وَأَلَّا يُذيعَ اسْمَها ، وَإِلَّا قُضِىَ عليها وَعَلَى أُسْرَتِهَا ، إِذَا عَرَفَ الضباطُ البريطانيون أَنَّهَا خَانَتْهُمْ ، وَكَشَفَتْ سِرَّهم .

ثم تركت القَائِدَ ، وعادتْ مُسْرِعَةً إلى الطَّاحُونَةِ ، فوجَدتِ الدقيقَ مُعَدًّا . فركِبَتْ فَرَسَها ، وأَخـذت كِيسَ الدقيقِ أَمامَهَا ، وَرَجَعتْ إلى منزلِهـا ، فَوصَلتْ قبلَ غُروبِ الشمسِ سالمةً آمِنةً ، راضيةَ النَّفسِ ، مستريحةَ الضميرِ ، مُنْتَبِطَةً مُنْشَرِحَةً ، سَعيدةً

« ليديا دارا » وهى تقص على كبير الجند « كريج » الخطة الحربية
وتخبره بالسبب الذى دعاها إلى الحضور

بما بذلت لوطنها ، وبالفرصة السعيدة التى تهيأت لها . فخدمت بها وطنها أجل خدمة فى أحرج الظروف . وظلت « ليديا » تحفظ هذا السر ، وتطويه عن أقرب الناس إليها . ولم تذعه حتى لزوجها .

خرج الجنود البريطانيون بهدوء من المدينة . فى الليلة التى حددها القائد الأكبر ، وساروا نحو جنود أمريكا يبغون ضربهم ضربة تقضى عليهم ، واتبعوا الخطة المرسومة التى نقلت خبرها « ليديا » . وقد أخذهم الدهش ، واستولى عليهم العجب حينما وجدوا جيش « واشنطون » قد بدل موقفه ، وأخذ أهبته ، وأصبح على أتم الاستعداد للقاء البريطانيين ، وإفساد خطتهم ، والهجوم عليهم من جهات أخرى لم يأخذوا حذرهم فيها . وقد كان البريطانيون يعتقدون أنهم سيأخذون جنود « واشنطون » على حين غفلة منهم ، وسيضعون عليهم صنوف الهلاك على غرة .

حاول الجنود البريطانيون — فى الظلام — أن يحيطوا بالجيش الأمريكى ، أو يضربوه بحيث لا يمكنه أن يحمى نفسه ، ولكن ضاعت جهودهم عبثاً ، وذهبت سدى ، وساءهم أنهم لم يجدوا

مكاناً ينفذون منهُ إلى عدوِّهم وهُم فى أمْنٍ على صفوفهم .

وظلَّ الجيشُ البريطانىُّ يُهدِّدُ جيشَ « واشنطونَ » يومَيْن كاملَين ، يُحاولُ أن يُخرجَه من الخنادقِ التى يَحْتَمى بها ، فلَمْ يتمكَّنْ ، وسَرَى اليأسُ إلى نفوسِ البريطانيِّينَ ، واشتدَّ حزنُهم وجَزَعُهم ، وخارَتْ قُواهُمْ ، وانكسرَتْ شوكتُهم ، فعادُوا إلى (فِيلادِلْفِيا) خائبينَ مَحْسُورينَ

قال الضُّبَّاطُ البريطانيون — وقَدْ أدْرَكُوا أن خُطَّتَهُمْ قَدْ كُشِفَتْ — : « إنَّها لخِيانَةٌ كُبْرَى ، كانت أُولَى نتائجِها تِلكَ الهزيمةُ الشَّنْعاءُ » . وتساءلوا فيما بَيْنَهُمْ : « مَنْ يا تُرَى يَكُونُ الخائنُ ؟ » ولَمْ يمرَّ بخاطِرِ أحدِهم أنَّ « لِيدْيَا » الوَدِيعَةَ الهادِئةَ ، الكريمةَ الخُلُقِ ، التى أعَدَّت لهم مَكانَ الاجتماعِ بالأَمْسِ ، والتى لَمْ تُعْلِنْ حَنَقَها عليهم فى لَحْظَةٍ ما ؛ لَمْ يَمُرَّ بخاطِرِ أحدِهم أن « لِيدْيَا » هى ذلكَ الخائنُ الذى يَوَدُّونَ مِن صَمِيمِ قُلوبِهِمْ مَعْرِفَتَهُ ، لِيُذِيقوهُ جزَاءَ ما اقْتَرفَ من الإثْمِ .

ولَقَدْ زارَها بَعْدَ ذلك رَئيسُ الضُّبَّاطِ ، وسَأَلَها : « أتَتَذَكَّرِينَ يا « لِيدْيَا » الاجتماعَ الذى عَقَدْناهُ هُنَا مُنْذُ لَيالٍ ؟ » فأجابَتْ « لِيدْيَا » : « نَعَمْ أذْكُرُ ذلكَ ولا أنْساهُ » .

فقال : « هَلْ كانَ أَحدُ أَفْرادِ الأُسْرَةِ مُتَيَقِّظاً فِي أَثْناءِ الاجتماعِ ؟ »

فأَجابَتْ : « لا ، لقَدْ أَوَوْا إِلى مَضاجِعِهِمْ ، بَعْدَ أَنْ طَعِموا عَشاءَهُمْ مُبْكِرِينَ ، وَكانَ ذلكَ فِي السّاعةِ السّابعةِ » .

فقال : « إِنَّنى لَفِي حَيْرَةٍ وَعَجَبٍ ، وَلا أَسْتطيعُ أَن أَفهمَ إِلّا أَنَّ أَحداً قدِ استَرقَ السَّمْعَ فى تلكَ الليلةِ ، وَعَرَفَ خُطَّتَنَا ، وَنقلَها إِلى أَعدائِنَا ؛ حتى أَمكَنَهم أَن يأْخذوا حِذْرَهُمْ مِنّا . لَقَدْ كُنْتِ يا « لِيدْيا » نائمَةً ، وَلَقَدْ قَرَعْتُ بابَكِ ثَلاثَ مرّاتٍ ، حتى اسْتَيْقَظْتِ لِتُغْلِقِي بابَ البَيْتِ بَعْدَ خرُوجِنا . فكيفَ نُقِلَتْ خُطَّتُنَا إِلى « وَاشِنْطُونَ » ؟ ، وكيفَ عَرَفَها الأَمريكِيّون المحارِبُونَ ؟ ، وَمَنْ ذلكَ الغادرُ الذى نَقَلَها إِليهم ؟ »

ظَلَّ يُسائِلُ نَفْسَه تارةً ، وَيُسائِلِ « ليديا » تارةً أُخْرَى ، ولكن « لِيدْيا » احْتَفَظَتْ بالسِّرِّ — الذى لا يَعْرِفُه غيرها — حتى انتهتِ الحربُ ، وخَرَجَ الأَمريكيون مِنها يحملونَ أَلْوِيَةَ النَّصْرِ ، وَتَمَتَّعُوا بعدَهَا بِاسْتقلالِهم .

لقد خاطَرَتْ « ليديا » بِنَفْسِهَا ، وجَازَفَت بِحياتِها فى سبيلِ وطنِها العزيزِ ، وهَل فى حياةِ امْرِئٍ ما هو أَعَزُّ عليهِ من وطَنِه ؟ ونَفَعَها صَمْتُها وكِتْمانُها السِّرَّ ، وأَبْعَدَ عنها الهدوءُ التُّهمةَ ، ولوْ لم

تركبْ « لِيدْيا » إلى طاحونةِ « فرَانْكفُورْدَ » — وهىَ تَحْمِلُ فى قَلْبِهَا السِّرَّ العظيمَ — لما كان النَّصْرُ من نَصِيبِ الأمريكيين ، ولولاهَا لهُزِموا شَرَّ هَزِيمةٍ .

ولَوْ أَنَّ « ليديا » لمْ تقُمْ بتَبْلِيغِ رِسالتِها ، لكانتْ خائنةً لِوَطَنِهَا ، عاقةً لبِلادِها ، لكنَّها أدَّتْ واجِبَها ، فأَرْضَتْ ضميرَهَا ، وأَنْقَذَتْ وطنَهَا . فعَرَفَ لهَا الْوَطَنُ جَمِيلَ صُنْعِها ، وأكْرَمَهَا كما أَكْرَمَتْه ، وأَعَزَّهَا كما أَعَزَّتْه ، والوَطَنُ أَقْدَرُ من يَجْزِى الجَمِيلَ ، ويُخَلِّدُ ذِكْرَى خدَّامِهِ المُخْلِصِين فى سِجِلِّ الْخَالِدِينَ .

القصة الثانية

حَامِلُ الرِّسَالة

قصة فرَنسية

كانت الحربُ العُظْمَى قائمةً على قَدَمٍ وساقٍ بَيْنَ الألمانِ وخُصومِهِمْ ، وكان الجنودُ المساكينُ يَقْضُونَ الليالِيَ الطِّوَالَ ، دونَ أن يَغتمِضَ لهم جفْن ، أو يَسْتَقِرَّ بهم مَضجَع ، وكيف ينامون ودَوِيُّ المدافع يَرِنُّ فى الفضاء ، وَرَصَاصُ القَذَّافَاتِ[1] يَسَّاقَط من السماء ، والجو قُرٌّ[2] تَجْمُدُ منه الدِّماء ، والعدو مُتَرَبِّصٌ[3] بآلات الدَّمارِ والفَنَاء ؟؟

هكذا كان مَيْدَانُ القِتالِ مَحْفُوفًا بخنادقِ المتحاربين ، يَأْوِى إليها الجنودُ كلَّمَا دَهَمَهُمْ[4] أمْر ، أو أصابَهُمْ ذُعْر[5] ، ويَلْجَئُون إليها فِراراً من الموت .

وكانت قُوَّةُ الجيش الألمانِيِّ ظاهِرَةً[6] ، وآلاتُه وَعُدَدُهُ مُحْكَمَة ، وعُيُونهُ مَبْثُوثَةً[7] فى كلِّ مكان . أما الجيشُ الفَرَنْسِيُّ

(١) « البنادق » . (٢) برد شديد . (٣) منتظر . (٤) فاجأهم .
(٥) خوف . (٦) غالبة . (٧) متفرقة .

البريطانى) ، فقد كان فى حاجةٍ إلى الرجال ، بعد أن حَصدتِ المدافعُ الألمانيةُ كثيراً منهم ، فخَرُّوا بَيْنَ قتيل وجريح .

وانْزَوَى هؤلاء الفَرَنسيون فى خنادقهم ، ينتظرون النَّجْدَة ، ويَرْقُبُون وُصُولَ الْجَرِيدَةِ[1] التى قِيل إنها فى طريقها إليهم .

وقد أُلْقِىَ إليهم بَعْدَ ذلك أن الألمانَ عَلِمُوا بأمر هذه الجريدة ، فأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ على أخذ جُنودِهَا بَغْتَةً وهم لا يَشْعُرون . وظَنَّ الفرنسيون أنَّهُ لن يمضىَ غَيْرُ قليل من الوقت ، حتى تكونَ هذه الجريدة فريسةً للألمان ، دون إنْذَارٍ أو إعلان .

لهذا دَبَّ الرُّعْبُ فى قلوبِ إخوانِهم المحْصُورين ، وتَصَوَّروا هذه النتيجةَ المؤلمة ، وشَعَرُوا بذلكَ الخَطَرِ الْمُحْدِق[2] بتلكَ الْجَرِيدة ، وسَرَتْ فيهم جميعاً رِعْدَةُ الأسَى والألم ؛ لأن الطريقَ بينَهم وبَيْنَ إخوانِهِمْ مَرْصُودٌ[3] بآلات العَدُوِّ وجُنُودِه . ومع كل هذه الصِّعاب ، تَقَدَّمَ جُنْدِيَّانِ باسِلان[4] ، وتَطَوَّعا بأن يَحْتَالَا فى الوصول برسالةٍ من قائدهم إلى قائد الْجَرِيدَةِ ورجاله ، ليُنْذِرُوهم ، ويُبَيِّنُوا لهم ما فى طريقهم من خَطَر . ولكن رَصَاصَ الألمان عَجَّلَ عليهما

(١) قطعة تنفصل من الجيش وترسل لحاجة ما .
(٢) المحيط . (٣) مراقب . (٤) شجاعان

قبلَ أنْ يتوارَيا عن الأنظار . وهكذا كان نصيبُ كلٍّ من يفكّرُ فى اُجْتيازِ تلك المِنْطَقةِ الألمانية ، التى وقفوا فيها لأعدائهم بالمِرْصَاد .

ركب حامل الرسالة دراجة ، وقد أنساه شرف الغاية
ما يحيط به من مخاوف وأهوال

عَزَّ على أحد الجنود الفَرَنْسيين أن يَهْلِكَ قَوْمُه على مرأى منه ومَسْمَع ، فاستأذَنَ قائدَهُ فى تبليغ الرسالة ، فلما أُذِنَ له ركب دَرَّاجَتَه ، وانكفأ عليها ، وتَسَلَّلَ تحت الأشجار ، وفى وهاد

الأرض ، ورَصَاصُ العـدوِّ يَمُرُّ عن يمينه وعن شِماله ، وبَيْنَ يَدَيْه ومِنْ خَلْفِه . ولم يَشُكَّ قومُهُ لحظةً فى هلاكه ، ولكنه توارَى عن الأنظار ، ولم تَزَلْ دَرَّاجتُه تَطْوِى الأرضَ طَيًّا . وقد أنْسَاهُ شَرَفُ الغايةِ ما يُحيطُ به من مَخَاوِفَ وأهوال . وأخيراً نَجَا هَـذَا الجندىُّ بِمُعْجِزَة ، فلم يَنَلْ منه رَصَاصُ العدوِّ ، ولم تَخُرْ[1] قواهُ من شـدة الهَوْلِ والتَّعب ، ولكنَّهُ صَبَر وصَابَرَ وجَاهَدَ ، حتى وصل إلى قَوْمِه .

القائد يقلد الجندى الشجاع وسامه ، مكافأة له

ولما أَخْبَرَ القَائِدَ خَبَرَهُ ، نَزَلَ عن جوادِهِ وحَيَّاهُ ، وقَدَّمَ له وِسَامًا فاخرًا — كان قد اكْتَسَبَهُ مُنْـذُ سنواتٍ — لِبُطُولَتِهِ ،

(١) تضعف .

ووَضَعَهُ على صَدْرِ هذا الجندى ، وقال له : « أَيُّهَا الأَخُ ، لقد مُنِحْتُ هذا الوِسَامَ ، مُكافأةً لى على إنقاذِ نَفْسٍ من الهَلاكِ ، ولقد أَنْقَذْتَنَا جميعاً من خَطَرٍ مُحَقَّقٍ ، فَتَفَضَّلْ بقَبُولِ هذا الوِسام ، وتَأَكَّدْ أننا لن نستطيعَ الوَفاءَ لك بما تستَحِقُّه من تقديرٍ وإجْلَال » .

وقَدْ غَيَّرَتِ الجَرِيدَةُ طريقَهَا ، فَنَجَتْ من الخَطَرِ ، وبَذَلَ جُنُودُهَا من أَنْفُسِهم ما بذلوا ، فى سبيل الدِّفاع عن إخوانِهِم المحصورين ، حَتَّى مَهَّدُوا[1] لهم سبيلَ النَّجاة . ولَوْلَا هذا الجندىُّ الشجاعُ لكانوا جميعاً من الهالِكِين .

---

(١) يَسَّروا .

القصة الثالثة

الطالبُ الجندىُّ وجَوَادُه

قصة إنكليزية

كَانَ لِأَحَدِ الْأَطِبَّاءِ الإِنكليزِ ، قَصْرٌ شَامِخٌ[1] الْبُنْيَانِ ، رَفِيعُ الأَرْكَانِ ، قَدْ شَيَّدَهُ فِي ضَاحِيَةٍ[2] مِنْ ضَوَاحِي مدِينة « لندنَ » ، لِيَكُونَ مَصِيفاً لَهُ وَلِأُسْرَتِه ، وَحَوَّطَهُ بِحَدِيقةٍ غَنَّاءَ[3] بَدِيعَةِ الأَزْهَارِ ، بَاسِقَةِ[4] الأَشْجَارِ ، زَادَتِ الْقَصْرَ بَهَاءً وَحُسْناً .

ذَهَبَ الرَّجلُ وَزَوْجُهُ ، وَمَعَهُمَا وَلَدُهُمَا « جاكٌ » ، وَابْنَتُهُمَا « مارى » ، إِلَى هَذَا الْقَصْرِ لِيَصْطَافُوا[5] فِيهِ كَعَادَتِهِمْ كلَّ سَنَةٍ ، وَلِيُمَتِّعُوا أَنْفُسَهُمْ بِهَوَاءِ الرِّيفِ النَّقِيِّ الْعَلِيل .

وَفِى ذَلِكَ العام قَامَتِ الْحَرْبُ الْعُظْمَى ، وَشَبَّتْ نِيرَانُهَا فَجْأَةً ، فإِذا هِيَ تأْكُلُ الرَّطْبَ وَالْيَابِسَ ، وَتَحْصُدُ الْأَرْوَاحَ وَالأَمْوَالَ ، وَتَقْذِفُ بِالشَّبَابِ وَالشَّيبِ إِلَى مَهَاوِى[6] الْفَنَاء ، وَتَخْتَطِفُ مِن الأُسَرِ ذُخْرَهَا مِنَ الأَبْنَاءِ وَالآباء . شَغَلَتْ أَنْبَاءُ الْحَرْبِ النَّاسَ جَمِيعًا ،

---

(١) عالى .
(٢) الضاحية : ماتنحى عن المساكن وكان بارزاً .
(٣) كثيرة العشب .
(٤) عالية .
(٥) يقضوا فيه فصل الصيف .
(٦) مسافط .

وَمَلَأَتْ أَعْمِدَةَ الصُّحُفِ الصَّبَاحِيَّةِ وَالْمَسَائِيَّةِ ، فَأَخَذَ النَّاسُ يَتَخَطَّفُونَهَا مِنْ أَيْدِي الْبَاعَةِ ، وَيَقْرَءُونَ جَدِيدَ الْأَخْبَارِ ، مِنْ نَصْرٍ وَهَزِيمَةٍ ، وَيَتَفَقَّدُونَ مَوَاقِعَ الْمَعَارِكِ فِي مُصَوَّرَاتِهَا ، فَيُخَيَّلُ إِلَى كُلِّ أُمٍّ وَأَبٍ أَنَّ وَاحِدَهُمَا قَدْ خَرَّ صَرِيعًا ، فَيَجِيشُ الْهَمُّ فِي صَدْرِهِمَا ، وَيَتَرَقْرَقُ الدَّمْعُ فِي مَآقِيهِمَا ، ثُمَّ يَعُودَانِ إِلَى ثَبَاتِهِمَا فَيَنْشُدَانِهِ [1] ، وَإِلَى صَبْرِهِمَا وَأَمَلِهِمَا فَيُجَدِّدَانِهِ ، وَيَرْجُوانِ أَنْ يَكُونَ النَّصْرُ لِوَطَنِهِمَا وَجُنُودِهِ ، وَأَنْ يَكُونَ ابْنُهُمَا مِنَ الظَّافِرِينَ النَّاجِينَ .

وَكَانَتِ الزَّوْجَاتُ يَذْكُرْنَ أَزْوَاجَهُنَّ بِحُزْنٍ وَأَسًى ، وَيَتَكَلَّفْنَ الصَّبْرَ وَالْجَلَدَ أَمَامَ أَطْفَالِهِنَّ وَهُمْ يُنَادُونَ آبَاءَهُمْ ، أَوْ يَسْأَلُونَ عَنْ أَمَاكِنِهِمْ ، وَيَتَمَنَّوْنَ رُؤْيَتَهُمْ فِي حَنِينٍ وَبُكَاءٍ . وَقَدْ يَغْلِبُ الْأَسَى عَيْنَ الْأُمِّ ، فَتَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا ، وَتَكَادُ نَفْسُهَا تَخْرُجُ فِي زَفْرَةٍ مِنَ الزَّفَرَاتِ .

وَكَانَتِ الْحَرْبُ حَدِيثَ الطَّبِيبِ وَأُسْرَتِهِ ، كَمَا كَانَتْ حَدِيثَ سَائِرِ الْأُسَرِ . وَكَانَ ابْنُهُ « جَاكٌ » يَقْرَأُ أَخْبَارَهَا ، وَيَتَتَبَّعُ مَوَاقِعَهَا ، فَيَشْغَلُ بِذَلِكَ كَثِيرًا مِنْ وَقْتِهِ ، وَيَجْعَلُ الْقَلِيلَ لِلدَّرْسِ وَالْقِرَاءَةِ ،

---

(١) يطلبانه كأنه مفقود لا يعرف مكانه .

وللنُّزْهةِ وَالرِّياضةِ . وَكثيراً ما تَحدَّثَ « جاكْ » إلى أُختِهِ الصغيرةِ « مارى » ، وَشغلَها بحديثِ الحَربِ وَأخطَارِهَا ، وَما نَالَهُ أبناءُ وَطنِه مِن نَصْرٍ ، أو حَلَّ بِهِمْ مِنْ عَناءٍ وَدَمار ، فكانَ السرُورُ يتَجلَّى فى عَيْنَيْهِ حِيناً ، وَكانَ الحُزنُ يَبْدُو فى أَسَارِيرِ[1] وَجْهِهِ حِيناً آخَر . وَما هُوَ إلاَّ أَنْ أَصبَحَ أمرُ الحَرْبِ شُغلَهُ الشاغِلَ ، فى نُطْقِهِ وَصَمْتِهِ ، وَفى يقَظَتِهِ وَنَوْمِهِ ، حَتى صَرَفَهُ ذلِكَ عن استِقصاءِ[2] دُروسِهِ — الَّتى كانَ يَطمعُ أنْ يَسْتذكِرَهَا — حتى إذَا عَادَ إلى جامعته « بأكسفوردَ » أدَّى فيها امتحَانَهُ الأخيرَ ، ليَنَالَ شَهادَتَهُ العَاليَةَ فى عِلمِ الطِّبِّ .

أدْرَكَتْ أُخْتُهُ « مارى » أنَّ أخاهَا قَدْ شُغِلَ بأمْرِ وَطَنِهِ ، وَالذَّوْدِ عَنهُ ، وَكَانتْ — لِصِغَرِها — لاَ تُقدِّرُ ما تَجُرُّهُ الحَرْبُ عَلَى وَطَنِها من أَهْوالٍ وبلاءٍ ، وَلاَ تُدْرِكُ ما يُقاسِيه الجُنودُ مِن شِدَّةٍ وَمِحْنَة ، وَهُمْ فِى حَوْمَةِ الوَغَى[3] ، يَجُودونَ بأَرْوَاحِهم ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ[4] ، وَمِنْهم مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَقَليلٌ مِنْهُمْ مَنْ يَرْجُونَ السَّلامَةَ مِنَ المَوْتِ وَإِنْ كانُوا جَرْحَى مُشَوَّهِين .

(١) أسارير الكف والجبهة : خطوطهما . (٢) تتبع . (٣) الحرب .
(٤) قضى نحبه : مات .

وَذَاتَ يَوْمٍ أَطَلَّتْ «مارى» مِنْ نافِذَةِ القَصْرِ ، فَرَأَتْ أَخاهَا يَسِيرُ فى المَزارِعِ ، مَهْمُومًا مُشَرَّدَ الفِكْرِ ، فَذَهَبَتْ إِلَيْهِ ، وَأَخَذَتْ تُداعِبُهُ وَتُضاحِكُهُ كَعادَتِها ، فَلَمْ تَرَ مِنْهُ إِلَّا ابْتِسامَةً لَا تَكادُ تَنْفَرِجُ عَنْها شَفَتاهُ إِلَّا عادَتا إِلى انْطِباقِهِما . وَإِذا وَجْهُهُ كَأَنَّما هُوَ صَحِيفَةٌ فِيها خُطُوطٌ مُبْهَمَةٌ ، لَا يَعْرِفُ مُطالِعُها أَهِيَ دَلائِلُ يَأْسٍ ، أَمْ عَلامَاتُ رَجاءٍ ؟ وَإِذا حَدِيثُه كُلُّه فِى الحَرْبِ وَأَهْوالِها ، وَالوَطَنِ وَأَبْنائِهِ ، وَحُلَفائِهِ وَأَعْدائِهِ . فَحاوَلَتْ أَنْ تُسَلِّيَهُ وَتَشْغَلَهُ ، فَلَمْ تَجِدْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا .

وَكانَ عِنْدَهُمْ فَرَسٌ كَرِيمٌ اسْمُهُ «بجى» ، جَمِيلُ الشَّكْلِ ، عَظِيمُ الرَّأْسِ ، دَقِيقُ الأُذُنَيْنِ ، وَاسِعُ العَيْنَيْنِ ، يَزْدانُ جَبِينُه بِهالَةٍ[1] بَيْضاءَ . وَكانَ مَوْضِعَ إِكْرامِ الأُسْرَةِ جَمِيعِها ، لِمَا امْتازَ بِهِ مِنْ قُوَّةٍ تَتَمَثَّلُ فى عَضَلاتِهِ البارِزَةِ القَوِيَّةِ ، وَبَأْسٍ يَتَجَلَّى فى مِشْيَتِه وَسَبْقِهِ ، وَذَكاءٍ عَجِيبٍ ، وَفِطْنَةٍ بالِغَةٍ ، لَمْ تُعْهَدْ فِى مِثْلِهِ مِنَ الحَيَوانِ . وَقَدْ بَلَغَ مِنْ تَعَلُّقِ أَفْرادِ الأُسْرَةِ بِهِ أَنْ كانُوا يَحْبُونَهُ بِالهَدايا ، وَيَخُصُّونَهُ بِعَطْفٍ كَبِيرٍ . وَكانَ يُبادِلُهُم هَذِهِ العاطِفَةَ ، وَيُظْهِرُ التَّوَدُّدَ لَهُمْ

(١) دائرة : وتسمى الغرة .

وَالانعطافَ إليهم ، وَلينَ الانقيادِ ، فما يرَى أحَداً منهم إلّا مالَ إليهِ برأسِهِ ، وَانعطفَ إلى جانبِهِ ، وَوقفَ مُستَخذِياً[1] بينَ يَدَيْهِ ، وَملَسَهُ بلِسانِهِ كأنما يُحَيِّيهِ . وكأنّما أدْرَكَ عَجزَهُ عَنِ الإفصاحِ بما يَجيشُ فِي صَدْرِهِ مِنَ الْوَلاءِ لهُ ، فَفَتَقَتْ لهُ الحِيلَةُ أنْ يَتَمَسَّحَ بثيابِهِ ، لعلَّ فى ذلكَ بلاغًا لِما تَنطَوِى عليهِ جوانحهُ مِن الْحُبِّ وَالإخْلاصِ .

وَلِهذَا لمْ يَكَدْ يُبْصِرُ «مارِى» فى طريقِها ، حتى تقدَّمَ إليها يُحَيِّيها ويُداعِبُها ، فرَبَتَتْ[2] بيدِهَا عَلَى رَقَبتِهِ ، فاهتَزَّ طَرَباً ومَدَّ فمهُ نَحوَ جَيْبِها ، فضَحِكتْ إعْجَابًا بذكائِهِ ، وَناوَلَتْهُ قِطْعَةً مِن السُّكَّرِ الذى حَمَلَتْهُ لهُ فِي جَيْبِها .

وفى ذلكَ الوَقْتِ حضَرَ «جاكُ» ، وشارَكَ أُخْتَهُ فِي مُداعَبَةِ فَرَسِهِ المحبوبِ ، وقَدْ تَمَّا مَعًا بِساعاتٍ جميلةٍ حَقًّا . فقَدْ كانَتْ شَمْسُ (سبتمبرَ) الجميلةُ ساطِعَةً ، وكانت الأشجارُ والأزْهارُ والبساتينُ يَشِعُّ مِنها جَمالٌ وَبَهاءٌ ، وَاعْتَلَتِ الأطْيارُ ذُرَا[3] الغُصُونِ ، توقِعُ[4] ألحانَها العذْبةَ ، وَتُرْسِلُ أصْواتَها المطْرِبةَ فى الفَضاءِ ، فتَمْتَزِجُ

---

(١) خاضعاً .
(٢) ضربت بيدها فى رفق وتتابع .
(٣) الذروة : أعلى الشىء .
(٤) الإيقاع : ترديد اللحن فى تطريب .

بخرير[١] الماء فِي القَنَواتِ . وَقَدْ عَطِرَ النسيمُ بِشذَا[٢] الأزْهارِ ، وَأَرَجِ[٣] . الرَّياحِينِ .

وَلقَد افتَتَنَتْ « مارى » بهذَا الجَمالِ ، وَاستَوْلَى عَلَى لُبِّهَا سِحْرُ الطَّبيعةِ ، وَسَيْطَرَ عَلَى وِجْدَانِها ، فانْطلق لِسانُها يَقول :

« ما أَجملَ الطَّبيعةَ ، وَما أَهْنأَنَا بَينَ أَكْنافِ هَذه الحُقُولِ ، وَما أَسعدَ سَاعاتٍ نختَلِسُها مِن صفْوِ الزَّمَن ! ! »

فَنظَرَ إِليها (جاكْ) نَظرةً ذاتَ مَغزًى ، وقال : « أَىُّ جَمالٍ ، وَأَيَّةُ سَعَادَةٍ ، وَأَىُّ صَفوٍ تَتمتَّعينَ بهِ يا « مارى » ، وَهؤُلاءِ قَومُنَا وَإِخوانُنَا — الذِينَ أَجابُوا داعِيَ الْوطَنِ — يَخِرُّونَ فى سَاحةِ الْوَغَى بَينَ الصفوفِ ، صَرْعَى وَقَتْلَى ، وَقَدْ تَركوا مِنْ خَلْفِهِمْ آباءً يَكْتَوُونَ بِنيرانِ الثُّكْلِ[٤] ، وَذُرِّيَّةً ضِعَافًا يُعَانُونَ مَذَلَّةَ الْيُتْمِ ؟ ! » .

قالَ ذلكَ ، وَاعْتراهُ أَسَفٌ شَدِيدٌ ، بدَا عَلَى أَسَارِيرِ وَجْهِهِ ، وَغَشَّى عَيْنَيْهِ بِسَحابةٍ مِنَ الْحُزْنِ الْعَمِيقِ ، وَالْكآبةِ المفْرطَةِ ، ثُمَّ اسْتأْذَنَ اختَهُ فى الْقيَامِ بِرِحْلةٍ قَصِيرةٍ عَلَى ظَهْرِ جَوادِهِ ، فَحيَّتْهُ

---

(١) الخرير : صوت جريان الماء .
(٢) رائحة .
(٣) انتشار طيبها .
(٤) فقد الأبناء .

وَانصَرَفَتْ إلى المنزِلِ . وَصادفَ ذَلِكَ أَنْ أَطَلَّ الطَّبيبُ مِن نَافِذَةِ مَنزلِهِ ، فألْفَى (جاكاً) مُمتطِيًا صَهْوةَ[1] فَرَسِهِ ، فى خِفةٍ وَسُرعَةٍ وَنَشاط . فقَالَ — وَكَانَتْ زَوْجُهُ بِمَسْمَعٍ مِنهُ — : « إنِّى لَأَلمحُ فِى (جاكٍ) سِمَاتِ[2] الْجُنْدِىِّ الْبَاسلِ . وَما أَحْوَجَ الْوَطَنَ إلى أَمثَالِهِ فى هـذِهِ الشِّدَّةِ الْعَصِيبَةِ ! ! » فَغَضِبَتْ زَوْجَتُهُ ، وَقَالَتْ : « عَجبًا لِهذِهِ الْقلوبِ الْقَاسِيةِ ، الَّتى تُلْقِى بِأَبنَائِهَا فى مَيْدَانِ الْقتالِ طُعْمَةً لِلنِّيرانِ ، دُونَ أَنْ تُدَاخِلَهَا الشَّفقةُ ، أَوْ تَثْنِيَهَا الرَّحمة ! ! » فَلَم يَحفِلْ بِالردِّ عَليهَا ؛ لِأَنهُ يَعلمُ أَنَّ حيَاةَ الْوَطَنِ أَبْقَى مِنْ حيَاةِ الْأَبنَاءِ . وَكَانَتْ تِلكَ فِكْرَةَ الْقَوْمِ فى هَاتِيكَ الْأَيَّامِ ، يَتَقَدَّمُونَ بِأَرْوَاحِهِمْ رَخِيصَةً لِخَلاصِ الْوَطَنِ ، وَكأَنَّهُمْ يُرَدِّدُونَ مَعَ الشاعر :

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الموتِ بُدٌّ فَمِنَ الْعَجْزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانَا

وَلَقَدْ بلَغَ مِنْ ذلِكَ أَنْ كَانَ الشُّيوخُ يَخْضِبُونَ[3] رُءُوسَهُمْ ، سَتراً لِشَيبِهِمْ ، وَلاَ يُبقُونَ أَثَراً لِلحَاهُم ، وَيَبْرُزُونَ لِلجُنْدِيةِ فى صورَةِ الشبَابِ . وَكانَ الْفِتيَانُ وَالْأَحْدَاثُ يَندفِعُونَ فى غِمَارِ الحرب — مُتَطَوِّعينَ — قَبلَ أن يَكْمُلَ نموُّهم .

---

(١) ظهر . (٢) علامات . (٣) يسودون بالصبغ .

وَفِي هَذَا الْوَقْتِ حَضَرَ بَعْضُ مَنْدُوبِي الحُكُومةِ لِشراء فَرَسِهِم المَحْبُوبِ « بجى » ، فأَظْهَرَ صَاحبهُ مِن الرِّضَا وَالسَّمَاحَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ وَطَنِيَّتِهِ ؛ لأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ أَشْبَالَ الوَطَنِ — فِي مَيْدَانِ الْقِتَالِ — فِي حَاجَةٍ إلى مِئاتِ الْخَيْلِ ، مِنْ أَمْثَالِ « بجى » ، وَلَكِنَّ ابْنَتَهُ « مارى » كانت مُتَأَلِّمَةً بَاكِيَةً ؛ لفَرْطِ حُبِّها لهذا الفَرَسِ الذَّكِيِّ ، وَلما تَعْلَمُهُ مِن حُبِّ « جاكٍ » له ، وَاعْتِزَازِهِ به .

وَبَيْنَما هُمْ عَلَى هَذَا الْحَالِ ، حَضَرَ « جاكٌ » مِن رِحْلَتِهِ ، وَقَادَ « بجى » إلى حظيرتِهِ ، فأَلْفَى « مارى » هُنَاكَ بَاكِيَةً مُنْتَحِبَةً[1] ، فَتَقَدَّم الفَرَسُ إليها ، وَوَضَعَ رَأْسَه عَلَى كَتِفِهَا ، كأَنَّمَا يُسَائِلُها عَنْ سَبَبِ بُكائِهَا .

وَأَلَمَّ « جاكٌ » بالْخَبَرِ ، فَرَبَّت بِيَدِهِ عَلَى ظَهْرِ فَرَسِهِ ؛ وَقَالَ لأُخْتِهِ : « لو عَلِمَ « بجى » ما يتهدَّد الوَطَن فى هذه الأيَّام الشَّدِيدَةِ ، لَتَقَدَّم إلى الحربِ طائعاً ، رَضِيَّ النَّفْسِ ؛ لأَنَّهُ شُجاعٌ لا يَهَابُ الموتَ » . فَمَسَحَتْ « مارى » دُمُوعَهَا ، وَقَالَتْ لأخِيهَا : « وَهَل الْحَرْبُ مِنَّا قَرِيبَةٌ ؟ » قَالَ : « نَعَمْ ، إِنَّهَا عَلَى تُخُومِ[2] الوَطَن ، وَقَدْ أَشْفَينَا[3]

(١) النحيب : رفع الصوت بالبكاء . (٢) تخوم الأرض : حدودها .
(٣) أشرفنا .

جميعاً على أثرِ مخوفٍ : لا منجى لنا منهُ إلّا بالتضحيةِ ، والاستئسالِ في الذودِ[1] عن البلادِ » .

« بجى » يضع رأسه على كتف « مارى » كأنما يسألها عن سبب بكائها

وفي تلكَ الليلةِ ، قدَّمَ « جاكْ » للفرسِ منَ التفاحِ والسكرِ ما لم يعهدْهُ كثيرةً . وما كانَ « بجى » يستطيعُ أنْ يستشفَّ[2] ما يخبئُهُ

(١) الدفع . (٢) يرى .

الغَيْبُ ، فَيُدْرِكَ سِرَّ ذَلِكَ ، وَمَا كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهَا آخِرُ طُعْمٍ (١) يَأْكُلُهُ فِي إِصْطَبْلِهِ النَّظِيفِ ، وَأَنَّهُ مُقْبِلٌ عَلَى حَيَاةٍ أُخْرَى ، كُلُّهَا جِهَادٌ وَشَقَاءٌ وَعَنَاءٌ ، وَجُوعٌ وَأَلَمٌ ؛ وَتَقَدَّمَ (جاكْ) إِلَى (بجى) عِنْدَ مُغَادَرَتِهِ الإِصْطَبْلَ ، وَهَمَسَ فِي أُذُنِهِ : « إِلَى اللِّقَاءِ فِي مَيْدَانِ الْقِتَالِ ، إِلَى اللِّقَاءِ ! »

وَلَقَدْ أَحَسَّ الْفَرَسُ مَرَارَةَ الْفِرَاقِ ، بَيْدَ أَنَّ الْمُعَامَلَةَ الطَّيِّبَةَ الَّتِي لَقِيَهَا فِي حَيَاتِهِ الْجَدِيدَةِ ، خَفَّفَتْ مِنْ حُزْنِهِ ، وَكَانَ إِرْهَاقُهُ بِالْعَمَلِ الْكَثِيرِ صَارِفًا له عَنْ تَذَكُّرِ الماضِي ، وَبَاعِثًا عَلَى نِسْيَانِ آلَامِ الْفِرَاقِ .

وَبَدَأَتْ مَتَاعِبُهُ حِينَ دَخَلَ عَرَبَةَ الْقِطَارِ الَّتِي لَمْ يَرْكَبْهَا فِي حَيَاتِهِ قَطُّ ، وَلَكِنَّ الْخُيُولَ الْكَبِيرَةَ الْمُجَرَّبَةَ هَدَّأَتْ مِنْ رَوْعِهِ . وَكَأَنَّ الْخَيْلَ كَانَتْ تَحْسِبُ أَنَّهَا مَصْرُوفَةٌ إِلَى مَيْدَانِ السِّبَاقِ ، وَتَخَيَّلَتْ أَنَّ الْفُرْسَانَ عَلَى ظُهُورِهَا ، وَالرِّيحَ تُدَوِّي فِي آذَانِهَا ، وَالنَّاسَ تُصَفِّقُ لَهَا هُنَا وَهُنَاكَ ، وَمَا جَالَ بِخَاطِرِهَا أَنَّهَا فِي طَرِيقِهَا إِلَى مَيْدَانِ الْقِتَالِ .

(١) طعام .

وَكَأَنَّ سَائِسَهَا أَرَادَ أَنْ يَقْطَعَ عَنْهَا هَذِهِ التَّخَيُّلَاتِ ، فَقَالَ يُخَاطِبُهَا : « إِنَّ مَيْدَانَ الْقِتَالِ أَشْرَفُ مِنْ مَيْدَانِ السِّبَاقِ ، وَإِنَّ الْخِدْمَاتِ الَّتِي يَرْجُوهَا الْوَطَنُ مِنْكِ لِهَى أَجَلُّ وَأَبْقَى ، فَهُنَاكَ سَنَعْتَمِدُ عَلَيْكِ فِي تَذْلِيلِ كَثِيرٍ مِنْ مَصَاعِبِ الْحَرْبِ ، وَالِانْتِقَالِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ، وَعَبْرِ الْخَنَادِقِ ، وَلَيْسَ الْحِصَانُ أَقَلَّ وَطَنِيَّةً مِنَ الْكَلْبِ الَّذِي يُسْتَخْدَمُ فِي حَمْلِ الْأَطْعِمَةِ وَالْأَدْوِيَةِ ، وَمُسَاعَدَةِ الْجَرْحَى فِي مَيْدَانِ الْقِتَالِ » .

مَضَى الْجَوَادُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْحَرْبِ ، أَمَّا « جَاكْ » فَإِنَّهُ لَمْ يَنْسَ مَا وَعَدَ بِهِ (بجى) ، مِنَ اللِّحَاقِ بِهِ فِي الْحَرْبِ . فَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ دَخَلَ عَلَى وَالِدَيْهِ ، وَقَالَ لَهُمَا : « لَقَدْ صَحَّ عَزْمِي عَلَى الْخُرُوجِ إِلَى مَيْدَانِ الْقِتَالِ ، لِأَنَّ ضَمِيرِي يُؤَنِّبُنِي عَلَى الْقُعُودِ عَنْ نُصْرَةِ الْوَطَنِ ، وَوَفَائِي لِبِلَادِي الْعَزِيزَةِ يَقْتَضِينِي التَّضْحِيَةَ وَالْجِهَادَ . إِنَّنِي لَا أَسْتَطِيعُ الْعَوْدَةَ إِلَى (أَكسفُورْدَ) ، وَلَا أُطِيقُ التَّفْكِيرَ فِي الدِّرَاسَةِ فِي وَقْتٍ أَرَى فِيهِ الْمَكَارِهَ مُحْدِقَةً بِبِلَادِي ، وَلَا أَقَلَّ مِنَ الْقِيَامِ بِنَصِيبِ الْجُنْدِيِّ فِي الْمَيْدَانِ الْحَرْبِيِّ . وَإِذَا كَانَ (بجى) قَدْ أَدْرَكَ شَرَفَ الْمُسَاهَمَةِ فِي إِنْقَاذِ الْوَطَنِ ، وَخَرَجَ

إلَى حَرْبِ الْأَعْدَاءِ ، أَفَيَجْمُلُ بِى أن أَكُونَ دونَهُ هِمَّةً وَنَيْلًا لِمَا يُكْسِبُ الْحَمْد ؟ ! » فرفَعَ الطَّبِيبُ بَصَرَهُ عَنْ كِتَابِهِ الَّذِى كَانَ بَيْنَ يَدَيْه ، وَوَجَّهَ إليهِ يُخَاطِبُهُ : « لَقَدْ أَتَيْتَ عَلَى مَا فِى نَفْسِى يَا (جَاكُ) ، وكُنْتَ عِنْدَ حُسْنِ ظنى ، وصَدَقَ مَا تَوَسَّمْتُه[1] فيكَ مِنْ غَيْرَةٍ وإباءٍ وشجاعةٍ ، فسِرْ يا بُنَىَّ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ » .

وَبَعْدَ هُنَيَّةٍ[2] قَالَتْ أُمُّهُ فى نبراتٍ رَزِينَةٍ جَلِيلَةٍ : « إلَى الْحَرْبِ يَا (جَاكُ) ، واللهُ يَحْفَظُكَ وَيَرْعَاك ، ويَجْعَلُ إقْدَامَكَ مَقْرُونًا بِالتَّوْفِيقِ والنَّصْر » .

وَفِى تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَقَفَ (جَاكُ) مَعَ أُخْتِه (مَارِى) عِنْدَ بَابِ الْمَنْزِلِ ، يَنْظُرَانِ إلَى مَا فِى الْحَدِيقَةِ مِنْ جَمالٍ ، فِى ضَوْءِ الْقَمَرِ الزَّاهِرِ ، وَيَتَأَمَّلَانِ مَا فِى الطَّبِيعَةِ مِنْ سُكُونٍ وَجَلَالٍ ، ثُمَّ قَالَتْ (مَارِى) : « مَا كُنْتُ أَشْعُرُ مِنْ قَبْلُ أَنَّ هُنَاكَ حَرْبًا ، وَقَدْ أَدْرَكْتُ الْحَرْبَ وأَهْوَالَها ، فَقَد امْتَدَّتْ إلَيْنَا ، فَاخْتَطَفَتْ (بجى) ، ثُمَّ هِىَ الآنَ تَخْتَطِفُكَ يَا (جَاكُ) » . ووَضَعَت يَدَها عَلَى ذِرَاعِ أَخِيهَا ، ثُمَّ كَانَ صَمْتٌ وَسُكُونٌ ، أَفْصَحَتْ فِيه النَّظَرَاتُ عَمَّا تُجِنُّهُ[3]

---

(١) أمله ورجوته . (٢) وقت يسير . (٣) تستره .

الصُّدورُ من الحُبِّ وَالإِشْفَاقِ بِمَا لاَ تَبْلُغُه الخُطَبُ المُحَبَّرَةُ[١] ، والأَقوالُ المُزَوَّرة[٢] .

وَبعْدَ بِضْعِ أَشْهُرٍ مِنْ مُعَانَاةِ (بجى) وَ(جَاكٍ) لأَهْوالِ الحَرْب ، وَتَمَرُّسِهِما بِمُحَاوَلاَتِهَا ، عَرَفَا أَسَالِيبَهَا وَحَقِيقَتَهَا ، وَأَدْرَكَا معنَى الجُوعِ والظَّمَإِ ، والرُّطُوبةِ والبُرُودةِ ، والتَّعَبِ والإِعْيَاءِ ، الَّذِى كَانَا يَتَمَنَّيَانِ عِنْدَهُ النَّوْمَ الأَبَدِىَّ . أَمَّا (بجى) فَقَدْ أَدَّى وَاجِبَهُ ، وأَبْلى بَلاَءً حَسَنًا ، وَلَمْ يَعْبَأْ بِمَا كَانَ يُرْفرِفُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْواعِ المَنَايَا : مِنْ قَنَابِلَ تُقْذَف ، وَمَدَافِعَ تُدَوِّى وَتُدَمِّر ؛ إِرْضَاءً (لِجَاكٍ وَمَارِى) . فَقَدْ كَانَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَعْرِفَا فِيهِ جُبْنًا أَوْ خَوْفًا ، أَوْ يَلْمَحَا مِنْهُ تَرَدُّدًا أَوْ عِصْيَانًا .

ولَقَدْ وَقَعَتْ ذَاتَ يَوْمٍ حادثةٌ تُنْبِئُ عَنْ ذكاء (بجى) ، فَبَيْنَا كَانَ يَحمِلُ جنديًّا إلى قَريةٍ صغيرةٍ — غُلب الألمانُ فِيها عَلَى أَمْرِهِمْ ، وانتَزعَهَا البريطَانيُّونَ مِنْ أَيْدِيهِمْ — إِذْ سَمِع صَوتَ قَذَّافةٍ[٣] ، وَأَحَسَّ أَنَّ عِنانَه قَد خُلِّىَ ، وَأَنَّ رَاكِبَهُ قَدْ مَالَ عَلَى رَقَبتِه ، فأَدْرَكَ الجَوادُ أَنَّ القَذِيفةَ[٤] قَدْ أَصابَتْهُ ، فتَرفقَ فى

(١) المزخرفة القول . (٢) المنمقة . (٣) القذافة : مايرمى به (البندقية) .
(٤) القذيفه : الرّصاصة .

سَيرِهِ ، وَتوَجهَ إلى مَكانِ الإسْعاف ، وَوقَفَ هَادِئًا بِمَرْأَى منْ رِجالِهِ ، فأسرعُوا إليهِ ، وَأنزَلوا الجُندِيَّ ، وَتَسَابَقت الأيْدِي إلى حَمْلِهِ وَعِلاجِهِ .

وَذَاتَ غَداةٍ جَمعَ القَائِدُ الجُنودَ والضُبَّاطَ ، وَأمَرَ بإحْضَارِ الجَوادِ « بجى » ، ثمَّ قالَ وهُوَ يَسْمعُ مِنهُمْ : « أيها الجُنُودُ الأشِدَّاء ، إنَّنى أبْنِى جُندِيًّا باسِلاً ، يُرَحِّبُ بالمَوْتِ ، ويتقدَّمُ لتبليغِ رِسالةٍ ذات شأنٍ إلى مَرْكَزِ القِيادةِ العُليَا . وَلْيَعْلَمْ أنَّ الطَّرِيقَ كلُّهُ مَهالِكُ ومَنَايَا ، وَأنهُ يتطلَّبُ بُطُولةً فَذَّةً ، وسَيجِدُ فى (بجى) جوَادًا يَكُونُ عِنْدَ مُقْتَرَحِه ، ويُنيلُه مُبْتَغَاهُ ، مِنْ إسْراعٍ وَإقْدامٍ » .

فبرزَ (جاكٌ) أمامَ الصُّفوفِ ، وَوقَفَ بَينَ يَدَى القَائِدِ ، وَقالَ : « أنَا ذَلكَ الجُندِيُّ يا سَيِّدِى ، وإنِّى أجيدُ رُكُوبَ الخَيلِ ، وَأستطيعُ تَبليغَ الرِّسالَةِ » . ومَا سَمِعَ (بجى) هَذَا الصَّوْتَ ، حَتى طَافَتْ بِرَأسِه ذِكْرَى سيِّدِهِ القَدِيمِ (جاكٍ) ، فَرفعَ صَوتَه بالصَّهيلِ ، وانْحدرَ إليهِ يُحيِّيه ، ولكِنَّ (جاكَ) قَدْ تَغيَّرَ شَكْلُهُ وزِيُّه ، وتَشَعَّثَ شَعرُه ، واغبرَّ لَوْنُهُ ، فَمَا كانتْ أعمَالُ الحَرْبِ تَمنَحُه مِنَ الفَراغِ مَا يُخلِدُ فِيهِ إلى التأنُّقِ ، واسْتكمالِ مَا عَهِدهُ مِن أسبَابِ النَّظَافَةِ والجَمَالِ .

« لمّى » يُقبّل الأرض مهنّئًا صاحبه لسيده القديم « جاك »

ولمّا وقع نظرُ (جاك) على (لمى) ، أقبلَ عليه وقبّلهُ أمامَ الجميع ، وطفقَ يمسحُ على عنقه وظهره . ثمّ امتطاهُ وعدا فى سبيله . يلتهبُ الأرضَ نهبًا .

ولمَّا فَضَلُوا[1] مِنَ الْعُمرانِ، قال (جاكُ لبجى): «كِلانا متعب مَكْدود، وَلَكِنَّ الوَاجِبَ يتطَلَّبُ جلَدًا وَصَبرًا عَلَى هَذِهِ المكَارِهِ، خِدمَةً لِلوَطن، والجميعُ يَترَقَّبونَ أَخبارَنا، فَلْنقُمْ بما يُشَرِّفُنَا ويُبقِي لنا ذِكْرًا، ولْنُجاهِدْ فى تبليغ الرِّسالةِ إلى مَرْكَزِ الْقيَادةِ الْعُلْيا».

ومَا كَانَ (بجى) فى حَاجةٍ إلى مَنْ يَسْتثيرُ نَشَاطه، أَوْ يتوَجهُ إليه برَجاء أو نُصْح؛ فهوَ الآنَ سعيدٌ (بجاكٍ)، يَرَى أَنَّ الأيَّامَ قَدِ اصْطَنَعَتْ عِندهُما يَدًا لا تُنْسَى، حيْثُ جَمعتْهُما بَعدَ الشَّتاتِ. وهُوَ يَودُّ إرضَاءَ سيِّدِهِ، وإنْ كلَّفهُ ذلِك ثَمنًا غاليًا، فأَسْرعَ كالبرقِ الخاطِف.

وفِى أثنَاءِ ذَلِك أُصيبَ (جاكٌ) بقذيفةٍ فى ذِراعِهِ، فارْتَعَدَ (بجى)، فقَالَ له (جاكٌ): «لَا بَأْسَ علَيَّ، فلَمْ يُصَبْ إلَّا ذِراعِى. وإنَّ بَينَ جَنْبَيَّ قلبًا لَا تَفُلُّ حَدَّهُ الصَّدَمَاتُ، ولَا تَثْنِى من مَضَائهِ هذه البلَايا، فسِرْ فى طريقِكَ مُسْرعًا، حتى نَطْوىَ الأرضَ، وَنُرضِىَ ضَمائِرنا، وَنبلغَ غَايَتَنا».

لَبَّى (بجى) رَجاءَ سَيِّدِهِ، ونَسىَ مَا أَلَمَّ به من الكَدِّ والإعْياء، وانْطَلقَ كالسَّهْمِ فَارَقَ القَوسَ. وبَيْنا هُوَ فى هذا العَدْوِ — الذى

(١) خرجوا.

لَا تَبلُغهُ الرِّيحُ — تَتَابَعتْ رَصَاصَاتٌ مُحْكَمَةٌ ، أَصابتْ (بجى) فى مَقْتَلِهِ ، فخرَّ صَرِيعًا بَعْدَ أَنْ قامَ بِواجبِهِ ، وبَلَّغَ سيِّدَهُ مَا يَرْجو .

« بجى » وقد خر صريعاً بعد أن قام بواجبه

اضْطُرَّ (جاكْ) آنئِذٍ أَنْ يَثِبَ إلى الأرض ، وَأَنْ يُسْلِمَ سَاقَيْه للرِّيحِ وَهُوَ جَرِيح ، مُيَمِّمًا شَطْرَ مَرْكَزِ الْقِيَادَةِ الْعُلْيَا ، فَأَدَّى الرِّسالَةَ ، وَبَعْدَ بُرْهَةٍ قَفَلَ رَاجِعًا ، وعَادَ إلى (بجى) ، فإِذَا بِهِ قَدْ فَارَقَ الْحَيَاةَ ، فَأَلْقَى عَلَيْهِ نَظْرَةَ الحزينِ المفجُوعِ ، وَبَكاهُ بِدَمْعٍ هَتُونٍ . كَانَ يَبْكِى فيهِ إِخْلَاصَهُ وَوَفَاءَهُ ، وتَضْحِيَتَهُ وَبَلَاءَهُ .

وَبعدَ أنْ وَضَعَتِ الحربُ أوْزَارَهَا ، وَالْتأمَتْ جروحُ (جاكْ) ، عَادَ إلى اسْرَتِه ، وَأخَذَ يَقُصُّ نَبَأ (بجى) ، وَما كَانَ منْ بَلائِهِ الْحَسَنِ الجميل ، وكانتِ الدُّموعُ تَتَحَدَّرُ من عَينيه ، فقَال والدهُ الطبيب — وهو يَمْسَحُ دُموعَه أيْضًا — : « إنى أعْتقِدُ أنَّ (بجى) قام بِوَاجبه نَحْوَ وطنِه ، كما ذادَ [1] الْجُنُودُ عن حِمَى الوطن . وَإن عَلَيْنَا أنْ نَذْكُرَ دائمًا — بالإجلَالِ وَالتَّقْدير — ما قام به الْجُنودُ من جُهدٍ مَشْكُور ، فى صِيَانَةِ الوطن ، والدفاعِ عن الْحِمَى ، وَمَا بَذَلُوا مِنْ دِمَائِهِمْ فى إرْوَاء شَجَرَةِ الْحُرِّيَّةِ » .

« وَلَئِنْ كُنَّا قَدْ دَفَعْنَا ثَمَنَ النَّصْر غَالِيًا ، لَسَوْفَ يَحْفَظُنَا الْوَطَنُ كما حَفِظْنَاهُ ، وَيُخَلِّدُ لَنَا فى سِجِلِّهِ مَا صَنَعْنَاهُ ، وَمَن حَرَصَ عَلَى الموتِ يا بُنَىَّ وُهِبَتْ لَهُ الْحَياةُ » .

---

(١) دافع .

القصة الرابعة

الغلام الشجاع

وطنية غلام فرنسي

لم يتجاوز « بيكون » الخامسة عشرة من عمره ، وكان يعيش في قرية من قرى فرنسا مع أمه البارة ، وأخويه الصغيرين . أما أبوه فقد ودعهم وذهب إلى ميدان القتال ؛ لأن الحرب الكبرى كانت مستعرة بين الحلفاء والألمان .

وأحدثت هذه الحالة في نفس « بيكون » أثرا بالغا . فلم يعد يفكر إلا في هؤلاء الجنود الفرنسيين الذين تركوا الأهل والمال ليدافعوا عن الوطن العزيز ، وتمنى أن ينال شرف الاشتراك في هذا الدفاع الوطني المقدس .

ومرت الأيام وهذا الخاطر ينمي في نفس « بيكون » ، حتى أصبحت رغبته صادقة ، ولم يكن يشغله إلا طريقة التنفيذ ، فهو يعلم أن سنه لا تبيح له الاشتراك في الدفاع عن الوطن

ولكنه كان يُمَنِّى نَفْسَه بأنَّه سيَجِدُ أعمالاً حَرْبيَّةً يَسْتَطِيعُ القيامَ بها ولو لم يكُنْ صغيرًا .

وفى يومٍ من أيام شهر « ديسمبر » استَيْقَظَ مُبكِّرًا ، وارْتَدَى مَلابسَ الكشَّافةِ ، وأخَذ معهُ قليلًا من الخُبْزِ والتُّفاحِ ، واتَّخذ طريقَهُ إلى أقْرَبِ مُعسْكرٍ حَرْبِىٍّ ، بَعْدَ أنْ كتَبَ لأمِّه رسالةً ، وكانَ واثقًا بأنَّها لن تَسْمَحَ له بالذَّهاب . وهاكَ نصَّ رسالَتِه :

« أمى العزيزة :

أعْلَمُ أنَّى لو استَشَرْتُكِ لَحُلْتِ بَيْنى وبَيْنَ ما أشْتَهِى ، من القيامِ بواجبِ الدِّفاعِ عن الْوَطَن ، ولكنِّى قد لبَّيْتُ نِداءَ الواجبِ ، واستَجَبْتُ لصَوْتِ الضمير ، ولم أُطِقْ أن أرى بلادِى يَنالُ منها الْخُصُومُ ، ويَنْتَقِصُونَ من أطرافها ، دون أنْ أبْذُلَ جُهْدِى ورُوحى دِفاعًا عَنها . وإنى — وإن كنْتُ قد تَخَلَّيْتُ عن أداءِ الْوَاجِبِ نحوَ أسْرَتى — سأَجِدُ لى مِنْ أداءِ الْوَاجِبِ نحوَ الوطن عَزاءً » .

« وأرْجُو ألَّا يجدَ الحزنُ سبيلا إلى قلْبِك . سَلامى إليكِ وإلى إخوتى . لا تَحْرِمِينى دُعاءَكِ الصَّالِح ، فهو خيرُ مُعينٍ لى فيما أُقدِم عَلَيْه مِنْ أمْرٍ خَطِير . والسَّلامُ عليكِ من ابنكِ الوَفِىّ » .

تلكَ هِيَ الرِّسالةُ الَّتى تركَها « بيكونُ » عَلَى الخِوانِ عنْدَ سفَرِه .
وكان سفراً شاقاً مُضْنِيًا ، أدْمَى قَدَمَيْه . وكان يَنامُ بالقُرَى الَّتى فى طَريقه كلَّما خَيَّمَ الظَّلامُ ، وَما إنْ وصَلَ إلى المعسكرِ حتَّى طَارَ قلبهُ

« بيكون » يبكى حزناً ، بعد أن قال له رئيس الجند :
إنك صغير يابنى ، وليس فى الجيش مكان للغلمان

فَرَحًا ، ولكنَّ الصَّدْمَةَ التى تَلَقَّاهَا كَانتْ قَوِيَّةً ، فَقَدْ أخبرَهُ رئيسُ الفرقة أنَّه لايزالُ صغيراً ، وَأنَّه لايَسْتَطيع قَبُوله .

ولكن الرغبة الصادِقَة لم تَقِفْ عندَ هذه الصَّدْمَةِ الأُولى ، فَوَلَّى وجهَهُ شَطْرَ « باريسَ » لَعَلَّهُ يجدُ فى رحَابها مُتَّسَعًا له ،

وَمَضَتْ عليه أيامٌ طويلة قبلَ أن يصلَ إلى « بَاريسَ » ؛ لأنَّ الطريقَ كانتْ طويلةً ، تَزِيدُ على مِائَتَىْ ميل . وكانَ أهلُ الرِّيفِ يَعْطِفُون عليه ، وَيُقَدِّمون له حاجَتَه مِنَ الطَّعام وَالمأْوَى .

وَأخيراً وَصَل إلى « باريسَ » التى وَضَع فيها كلَّ آماله ، وَهُوَ لم يَأْمُل فى جَاهٍ أو مَنْصِب ، ولكن حظَّه فى هذه المَرَّةِ لم يَكنْ خيراً من المَرَّةِ السَّالفة ، فلقد ذَهبَ إلى رئيس الجُنْدِ ، فقال لَهُ : « إنَّكَ صغيرٌ يَا بُنَىَّ ، وَلَيْسَ فى الجَيْشِ مَكانٌ للغِلْمانِ » .

وَلكنَّ عزيمته لم تَفْتُر ، ولم يَسْتَول عليه اليأسُ ، بَلْ فَكَّرَ هذه المرَّةَ أَنْ يَضَعَ نَفْسَه حيثُ يُريد ؛ فتَوجَّه إلى مَيْدانِ القتالِ حَيْثُ لا مَجَال هُنَاكَ إلا لِلْعَمَلِ والدِّفَاع . وَبَعْدَ جَهْدٍ شَدِيد ، وجَدَ نَفْسَهُ فى وَسَطِ مَيْدَانِ القتال ، تُدَوِّى أَصْوَاتُ القنَابل فى أُذُنَيْهِ ، وَيَمُرُّ الرَّصاصُ بَيْنَ يَدَيْه ، فاعْتَرَاهُ إغماء وَدُوَارٌ ، وَهو — وإن يَكُنْ قد قَرَأَ كثيراً عن أَوْصافِ الحرْبِ — لَمْ يَشتركْ فِيها ، ولم يتحمل أَهْوَالَها وأَوْزَارَهَا .

وَلَمَّا أفاق « بيكونُ » مِنْ غَشْيَتِهِ ، أَنكَرَ مِنْ نَفْسِه الرَّغْبَةَ فى الفِرارَ ، وصَمَّمَ عَلَى الرُّجوعِ إلى مَيْدَانِ القِتالِ ، وَإن كلَّفَه ذلكَ

جَهْدًا عظيما . ولم يَجِدْ صُعُوبَةً فى الوصول إلى الْخَنَادِقِ : لأنه اندمَجَ فى ثُلَّةٍ مِنَ الْجُنْدِ وَحَسِبُوهُ فَرْدًا مِنْهُمْ .

« بيكون » وهو يرى ساحة الحرب لأول مرة ، فيقف مذهولا

وَلما وَضَعَتِ الحربُ فى ذلكَ الْيوْمِ أوْزَارَها واشْتَغَلَ الجنودُ بإسْعَافِ الجرْحَى ، ودَفْنِ الموتى رَأَوْا بَيْنَهم هذا الغُلامَ

يَلْبَسُ مَلَابِسَ الكَشَّافة فَسَأَلُوه عَنْ أَمْرِهِ فَقَصَّ عليهم قِصَّتَه ، وأَخْبرهُمْ ما قاساه من أَهْوَالٍ فى سبيلِ الاشْتِرَاكِ فى الدِّفَاعِ الوطنى ، وأخذ يَرْجُو منهم — فى رِفْقٍ — أن يَسْمَحُوا له بالبقاء والعَمَل مَعَهُمْ .

فَأَخْبَرُوا رئيسَ الجُنْدِ بِأَمْرِ هذا الغُلام ، فَنَظَرَ إليه مُبْتَسِماً مُعْجَبًا ، وصوَّبَ نَظَرَهُ نَحْوَهُ ، مُقَدِّرًا شَجَاعَتَهُ ، التى قَلَّ أن يَتَّصِف بها أَتْرَابُهُ مِنَ الغِلْمان . وقال له : « يا بُنَىَّ ! ما كَانَ لى أَنْ أَقْبَلَكَ جنديًّا فى مثل هذا الوقت ، ولكنك جعلْتَنِى أُسَرُّ بانْضِمامِكَ إلَى الجُنُودِ ، لِمَا قَدَّمْتَ مِنْ إخْلاصٍ وَشَجَاعَةٍ » .

وبهذا تَحَقَّقَتْ رَغْبَةُ « بيكون » ، وكَانَ أَصْغَرَ جنْدِىٍّ فى الجَيْشِ الفَرَنْسِى ، وَأَخذ نَصِيبَهُ من الحياة فى الخنادق ، إذْ كان يَقُومُ بكلِّ ما يُلْقَى عَلَيه من الأَوَامِرِ خَيْرِ قِيام . ولم يُضَيِّعْ تلكَ الفُرْصَةَ التى أُتِيحَتْ له فى خِدْمَةِ شَعْبِهِ وَأُمَّتِه .

وذلك أَنَّه ذاتَ يومٍ نَسَفَتْ النَّسَّافَاتُ الألمانيةُ خَنادقَ الفَرَنْسِيِّينَ ، واضطُرَّ الجنودُ إلَى التَّرَاجُع ، ولكنَّ رئيسَ الجند أَرَاد أن يَسْتَرْجِعَ هَذِهِ الخنادقَ ، وَأن يَعُودَ جنودُهُ إليها ، بعد أن

كبير الجند يضع على ذراع « بيكون » شريطاً تقديراً لوطنيته

يَتَحَقَّقَ من جلاءِ الأَلمانِ عَنْهَا ، ولم يكنْ بدٌّ من ذَهَابِ أحدِ الجنُودِ لِيَكْشِفَ أَمْرَ هذِه الخنادق ، ولكنْ ، مَنْ هُوَ هذَا الجندىُ الجرىء ، الذى يُعَرِّضُ نَفْسَه للخَطَرِ وَالهَوْل ؟

لقد أحْجَم كلُّ الجنودِ ، وَلكنَّ « بيكونَ » وَجَدَ فِى هَذَا العملِ غِذَاءً وطنيًّا لرُوحِهِ التى أحبَّت الوَطَنَ كلَّ الحبِّ ، فتقَدَّم إلى الأمامِ قائلًا : « إنِّى مُستَعِدٌّ للذَّهاب ياسيدى » . فتردَّدَ الضابطُ أوَّلاً ، ولكنَّ « بيكونَ » ألَحَّ فى الرَّجاء . وأخيراً سَمَح له بالذَّهاب .

زَحَفَ « بيكونُ » على بَطْنِهِ كما تَزْحَفُ الأفاعِى ، وما زال يَسِيرُ حَتَّى علم أنَّ الخنادقَ خَالِيَةٌ من الأعداء ، فعاد يَحْمِلُ البُشْرَى إلى رئيسه . وعلى أثَرِ ذلكَ تقدَّم الفرَنْسِيُّونَ لِاسْتِرْجَاع خَنَادِقِهِمْ ، ثم دُعِىَ « بيكونُ » لمُقَابلةِ رئيسِ الجُنْدِ ، فَوَضَعَ على ذِراعِه شَرِيطَيْنِ تَقْدِيرًا له ، ورَمْزًا للشَّرَفِ والمكانَةِ الَّتِى يَسْتَحِقُّها . وكان سرُورُ « بيكونَ » عَظيماً ، حينما وَجَدَ نَفْسَهُ جُنْدِيًّا مَعْرُوفًا عِنْدَ رئيس الجُنُود .

لقد نَجَحَ « بيكونُ » فيما ذَهَبَ إليْه ، وصَبَتْ نفسُه لِتَحْقِيقِهِ ، ولَكِنَّ وَاجِبَ أُسْرَتِهِ أخذ يَعْظُمُ فى نَظَرِهِ ، وَلاَ سيَّمَا بَعْدَ أنْ وَصَلَهُ مِن والِدَتِهِ الرِّسَالةُ التَّالية :

« ولدى العزيز :

إنَّنا فى حاجةٍ كُبْرى إليك ، لِتَكُون ساعِدَنا ، بَعْدَ أنْ ذَهَبَ أبُوك إلى الحَرْب كما تَعْلَم ، وأخَوَاك لا يَزالانِ صَغِيرَيْنِ ، وفى حَاجَةٍ إلى رِعَايَتِكَ ، وقد أعْيَانِى الكِفَاحُ المُتَوَاصِلُ فى سبيلِ العَيْش ، فَإنْ رَأَيْتَ أن تَحْضُرَ سَرِيعاً ، لِتَحْمِلَ عَنِّى هَذَا العِبْءَ الثَّقِيلَ فَافْعل ، وإن كُنْتَ تَرَى أنَّ واجِبَ الوَطَنِ يَقْضِى عَلَيْكَ بالبقاء حيْث أنت فاسْتَمِرَّ ، واللهُ يَرْعَاكَ ، والأمْرُ إليك ، فَانْظُر مَاذَا تَرى ؟ »

ولما وَصَلَتْهُ الرِّسالةُ ، أخَذَ يَتْلُوهَا بَعِيدًا مِنَ الأنْظَارِ ، ثم أعَادَ قِرَاءتَهَا مَرَّاتٍ ، مُتَأثِّرًا بما فيها ، حَيْرَانَ لا يَدْرِى ماذَا يَفْعَلُ . فَقَدْ رَأَى أنّه لا يَسْتَطِيعُ أنْ يَعُودَ بَعْدَ هَذَا النَّصْرِ الَّذِى أحْرَزَهُ ، وَأنَّه لا بُدَّ مِنَ البَقَاء فى العَمَل الذى تَعِبَ من أجْلِه ، حتَّى يَفُوزَ الفَوْزَ الأخِيرَ .

ولَكِنَّه عَادَ وَذَكَرَ مَا قَالَتْهُ أُمُّهُ فى رسالتها ، ومَا تُقَاسِيهِ مِنَ الأهوالِ ، فَتَجَاذَبَتْهُ عَاطِفَتَانِ قَوِيَّتَانِ ، عَاطِفَةُ البُنُوَّةِ المُخْلِصَة ، وعاطِفَةُ الوَطَنِيَّةِ الصَّادِقَةِ ، وَعَزَمَ عَلَى أنْ يَعْرِضَ الأمْرَ عَلَى رَئِيسِ

الْجُنْدِ ، ولم يَتَرَدَّد الرئيسُ فى أَنْ يَنْصَحَ له بالعَوْدَةِ إلَى أُمِّه ، بعد أن عَرَفَ مَا كَتَبَتْه فى رسالتها ، وقال له : « لَقَدْ قُمْتَ يَا بُنَىَّ بِوَاجِبِكَ نَحْوَ وَطَنِك ، وَيَجِبُ عليكَ أَنْ تَقُومَ بِوَاجِبِك نَحْوَ أُسْرَتِك » . فَأَطَاعَهُ « بيكونُ » ، وَعَادَ إِلَى قَرْيَتِهِ لِيَعْمَل عَمَلًا جَدِيداً يَكُونُ مَوْرِدًا لِلْكَسْبِ . وَقَدْ كانَ مُوَفَّقاً فيما أَرَاد . وَهَكَذَا صَارَ « بيكونُ » رَمْزًا لِلْوَطَنِ وَلِلأُسْرَةِ جَمِيعاً .

القصة الخامسة

جان دارك

١ — نشأتها ، وتفكيرها

رُبَّما كانت « جان دارك » أشجعَ فتاةٍ ظهرتْ فى الوجودِ ، وأحقَّ أبطالِ التَّاريخِ وبَطلاتهِ بالعظَمةِ والخُلودِ .

قَضَتْ نَحْبَهَا حَرْقًا . وَلَمَّا تبلغِ التاسِعَةَ عَشْرَةَ من عُمرِها ، لا لِذنبٍ جنَتْهُ يَداها ، ولكن لأنها بالغَتْ فى الإخلاصِ لِوَطَنِها ، وَغالَتْ فى حُبِّ أهلِها وسَكَنِها . قادَتْ جيشَ فرنسا بعد أن نفَخَتْ فيه من رُوحِها المتوقِّدَةِ إخلاصًا وحماسَة ، وغلَبَتْ بهِ الإنجليزَ بَعدَ أن غَلبُوا فَرنسَا على أمرِها ، واسْتَعْبَدُوا أَهْلَها ، وصيَّروا أعِزَّتَها أذِلَّةً صَاغِرِينَ .

كانت « جان دارك » ابنةَ فلَّاحٍ فَرَنْسِيّ ، جاهِلٍ فقيرٍ ، لم يُعْنَ بتأديبِها ، ولم يكنْ لها مُعلمٌ يقُومُ بتهذيبها ؛ فنشأَتْ أُمِّيَّةً لا تقرأُ ولا تكتبُ ، ولكنَّها أظْهَرَتْ — عندَ محاكمتِها — من المعرفةِ ما حيّر ألْبابَ قُضاتِها . لم تُعَلَّمْ فى صغرِها ركوبَ الخيلِ ، ولكِنَّها كانَتْ

فارِسةً ماهرةً ، بَزَّت المَغاوِيرَ الأنجادَ ، ولم تَتَعلمْ فنونَ الحرب ، ولكنَّها أظهرتْ من حُسْنِ القِيادةِ ما شهدَ به أعداؤها الذين هزمَتْهم المرةَ تِلْوَ المرَّةِ ، ولم يَتمكَّنوا من أسْرِها إلَّا بَعْدَ أن دَسَّ عليها شَانِئوها الغوائل ، عندَ مَنْ كانَ طَريداً شَريداً ، فتَوَّجَتْهُ مَلِكاً عَلَى فرنسا ، فطابَقَهُمْ على إغفالِ أوامرِها .

كانتْ « جانُ » فى أثناءِ الحروبِ التى أجَّجَتْ نارَها ، والغاراتِ الَّتى شنَّتْها على أعداءِ وطنِها — كاللَّبُوءَةِ الهَصورِ ، تهاجمُ صائدَ أشبالِها ، ولكنَّها كانَتْ إذا رأتْ جريحاً وَلَوْ من الأعداءِ رَقَّ له قلبُها ، وَواسَتْهُ بنفسِها ، ومَنَعتْ عنهُ المضَرَّةَ والأذى .

ولقد كانَتْ متواضِعَةً ، إلَى حدٍّ أنَّها كانَتْ فى أوْجِ مَجْدِها ورِفْعَتِها ، تَنْزِعُ إلَى كوخِ أبيها ، لِتَغْزِلَ وتَنْسِجَ ، وَتَخِيطَ بالقُرْبِ من والدتِها .

وُلِدَتْ « جان دارك » فى قرية (دُمْرِمِى) ، فى إحدَى مُقَاطَعَاتِ شَرْقِيِّ فرنسا ، فى السادسِ من شهرِ « يناير » سنة ١٤١٢ م ، فى وقتٍ عصيبٍ ، لاقَى الفَرنسيون فيهِ من البَلاءِ ما لا يُمْكِنُ التعبيرُ عنه ، أو يُدْرَكُ له كُنْهٌ .

فلقدْ سعَى الطمعُ الأشْعبي بملوكِ إنجلترا إلى فرنسا ، ليكونوا مُلُوكاً عليها ، فاشتعلتْ نارُ الحربِ بينَ جُيوشِهم وأبْناءِ فرنسا المخلصينَ ، الذين هبُّوا خِفافًا للذَّوْدِ عن حِياضِهَا ، والدِّفاعِ عن بَيْضَتِها . وطالت الحربُ وكانَتْ سِجالًا ، فأكلتْ كلَّ خَضْراءَ وَغَضْراءَ ، وأهلكتِ الرجالَ ، وأثكلَتِ النساءَ ، وعاثَ الجنودُ المرتزِقةُ في الأرضِ فساداً ، فسَلَبُوا السُّكانَ المسالمين الوادِعينَ أموالَهم ، ونَهَبُوا مَواشِيَهم ، وعمَّهم الخوفُ والرعْبُ والفَزَعُ . والَّذي زادَ الطينَ بِلَّةً ، والحالَ سوءا — انقسامُ الفرَنْسِيِّينَ شِيَعًا وأحْزابًا : ففَريقٌ منهمْ كانُوا يناصِرون ملكَ الإنجليزِ ، وفريقٌ كانُوا يُؤازِرون الأميرَ « شارلَ » ولِيَّ عهدِ فرنسا ، وسُلالَةَ ملوكِها السَّالفين .

شَبَتْ « جانُ » وترَعْرَعَتْ في أحضانِ هذا الهولِ ، فأينَما ولَّتْ وَجْهَها رأتْ يأسًا وقُنُوطًا ، وتَخاذُلاً بينَ الجماعاتِ ؛ وحيثما ذهَبَتْ ، ألْفَتْ بُؤسًا وشَقاءً ، وتَنابُذًا بينَ الأفرادِ ؛ وفي أيِّ مكانٍ حلَّتْ لَمَسَتْ ذِلَّةً ومَسكَنَةً وصَغارًا ضاربةً عَلَى أبناءِ وطنِها ، كأن لم يَبْقَ من أبناءِ فرنسا إلَّا كلُّ نِضْوٍ مَنهوكِ القُوَى ، خائرِ العَزيمةِ ، في حَواسِّهِ خَدَرٌ ، جعَله لا يتأثَّرُ لمصابِ أُمَّتِهِ التَّعِسَةِ .

شَجَتها حالُ قومِها ، وَأَقضَّتْ مَضْجَعها ، وكادتْ تَدِبُّ فى جسمِها سمومُ اليأسِ ، لولا أنْ لاحَتْ لها فى سماءِ نفسِها الصَّافيـةِ بَارِقَةٌ من الرَّجاء .

كانَتْ « جان » تَنْفَرِدُ بِنفسِها فى الخَلاءِ ، بين المُرُوج الخضراء ، وَتُطِيلُ التفكيرَ ، مُطْرِقَةً إلى الأرضِ تارةً ، وَمُقلِّبةً وَجْهَها تارةً أخرى فى السماء ، ثم تَرْكَعُ وَتَدْعُو اللهَ أَنْ يَلْطُفَ بفرنسا ، وَأَلَّا يُؤَاخِذَهَا بما فعل سُفَهاؤُهَا . فأضاءَ اللهُ قلبَها بنورِ اليقين ، فرأتْ — بعينِ بَصِيرتِها — أَنَّهُ لَا يَنْقُصُ فرنسا لِتَصْمُدَ لأعدائِها إلَّا قائدٌ مُؤْمنٌ بعدالةِ قَضِيَّتِها ؛ فَلِمَ لا تكونه ؟ ! !

وَلقدْ حَدَثَ لهـا حادِثٌ حينَما كانَتْ فى الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ من عمرِها ، كانَ له أَثَرٌ كبيرٌ فى حياتِها .

كانَتْ تَسْتَبِقُ مع فَتَيَاتِ القَرْيةِ وَفِتْيَانِهَا ، أمامَ جَمٍّ غَفِيرٍ من القَرَوِيين ، فَسَبَقَتْ « جانُ » المتَسَابِقينَ جميعاً ، وَنَادَتْها فتاةٌ من النَّظَّارَةِ قَائِلَة لها : « جانُ ! إنِّى أَرَاكِ طائرةً من غير أن تَلْمِسَ قَدَمَاكِ الأرضَ » . وعندَ انتهاءِ السِّبَاقِ ، شَعَرَتْ « جانُ » بشعُورٍ غريبٍ ، نَسِيَتْ معهُ نَفْسَها بضْعَ ثَوانٍ ، وغَابَ عنْهـا وَعْيُها ،

فلمْ تعُدْ تدرِى أينَ كانَتْ . ثُمَّ لمْ تلبثْ أنْ تخيَّلتْ صوْتًا ينادِيها من خلفِها : أنْ أسرِعِى إلى البيْتِ ، لأنَّ والدتكِ تطْلبُكِ .

لمْ تستبِنْ « چانُ » مصْدرَ الصوتِ ، وظنَّته أخاها أوْ أحد جيرانِها ، فأسرعتْ إلى البيْتِ فعلِمتْ أن والدتَها لم تُرْسِلْ أحدًا فى طلبِها ، فعجبتْ « چانُ » جدَّ العجبِ ، ورجعتْ إلى لِداتِها ، وبينما هِىَ فى طريقِها إليهنَّ رعدَ الرعدُ ، وبرقَ البرقُ ، فأضاءَ ما حوْلَها ، وغشِّى بصرَها ، وخُيِّلَ إليها أنَّها سمِعتْ صوْتًا يهتِفُ باسمِها ، ويُهيبُ بِها أن تعمَل لخلاصِ فرنسا مِن أعدائِها الإنجليزِ .

وسَواءٌ أكانَ ما تسْمعُهُ « چانُ » ، منْ وحْىِ خيالِها ، أم كانَ سِرًّا خفِيًّا من أسرارِ رُوحِها ، فإنَّ كثيرًا من الناسِ ، كانُوا يزْعُمون أنَّها كانتْ تسْمع الأصْواتَ ، وتتَّبِع إرْشاداتِها بكل عِنايةٍ ودِقَّةٍ ، ظنًّا منها أنَّها أصْواتُ القِدِّيسِينَ والقِدِّيساتِ ، أوْ أولياءِ اللهِ الصَّالحين الذين كانتْ تؤمِنُ بِقُدْسِيَّتِهم ، وبقدرتِهم الخارِقةِ للعادةِ .

٢ — «جان» تطلب مقابلة الأمير «شارل»

وارث عرش فرنسا، وتُلِحُّ فى ذلك

توالت الهزائمُ على الفَرنسيين، واستولَى الإنجليزُ وحلفاؤهم — من سكَّانِ فرنسَا نفسِها — على مُقاطعاتِ فَرنسا، الواقعةِ شمالىَّ نهرِ «الوارِ»، وهَمُّوا بالاستيلاء على مدينةِ «أورليانَ» أَمْنَعِ مَعاقلِ الفَرنسِيينَ، الموالينَ للأميرِ «شارلَ»، ومفتاحِ مُقَاطَعاتِ الجنوبِ الموالية للأميرِ، والَّتِى مَا انفكَّ أهْلُها يُنَاضِلُون فى سبيل حرِّيةِ فَرنسا.

وكانَتْ «أورليانُ» واقعةً على ضفَّةِ نهرِ «الوارِ» اليُمنَى؛ حَيثُ مجراهُ عميقٌ ومتَّسِعٌ، ومياهُهُ مُتَدَفِّقَةٌ، يَعْتَرِض سَيرها بِضعُ جزائرَ، وحيثُ يَعبُرُ النهرَ جسرٌ عظيمٌ مَنيعٌ، أُقِيمَ على نِهَايَتِهِ اليُسْرى حِصنَان مَنِيعانِ، كانَ أَوَّلَ هَمِّ الإنجليز الاستيلاء عَليهما. وَقَدْ تَمَّ لهُمْ مَا أرادُوا، فهدَّم الفَرنسِيون — المدَافِعون عن المدينةِ — جزءًا مِنَ الجسرِ، لمنعِهم من الوصولِ إلى مَدينتهم. ولَقد تأدَّى خبرُ ذلك إلى مَسامع «جان»، فحَزَّ فى نفسها، وَأَوْحتْ إليها هواجِسُهَا بأنَّه يَنْبَغِى لها أن تَذْهَب إلى الأميرِ، فقد آنَ الأوانُ لخَلاصِ فَرنسا — على يَديْهَا — مِن رِبْقَةِ الاسْتِعبَادِ. ولكنْ كيفَ السبيلُ إليهِ؟! وَبينَها وبينَه سهولٌ

وأوعارٌ ، وقُطّاعُ الطرقِ السفّاحونَ مُنبثّونَ فى كُلِ مكانٍ . فخلت بعمّ لها ، وفاتحتْهُ بما عزمَت عليهِ ؛ فدُهشَ لأول وهلةٍ من غرابة مَطْلَبها ، ولكنّه سَرْعانَ ما اقتنع بصدقها ، فأشار عليها بالذّهابِ إلى بلدةِ « قُوكُولير » ، ومقابلة حاكمها ، وعرْضِ أمرها عليه . فطابقتْه عَلَى رأيهِ ، ورافقَها عمُّها إلَى « قُوكُولير » ، واستأذَن لها فى الدُّخولِ عَلَى الحاكمِ ، فلمّا أفضَتْ إليه برسالتِها استغرقَ فى الضّحكِ ، وقالَ لعمِّها : « خُذِ ابنةَ أخيكَ إلى بَيْتِ أبيهَا ، وسُدَّ أُذُنَيْهَا ، حذرَ أصواتِها الغريبةِ » . ولكنّ « چانَ » لم تيئس ، وألحّت فى مقابلتِهِ مرةً أخرَى ، فأذِنَ لهَا ، وسَرْعان ما أقنعَت الحاكمَ أنها ليستْ هازلةً أو هاذِيةً . فشاوَر القسوس فى أمرِها ، وطفقَ هؤلاء يسألُونَها ويناقشُونَها ، فظهَر لهم أن مَا بِهَا ليسَ رجْساً من عملِ الشيطانِ ، وأن عقلَهَا سليمٌ ليسَ به خبَلٌ ، وأن إيمانَها باللهِ صادقٌ .

فرأى الحاكمُ أن مِن الأحْوطِ إرسالَها مَخْفُورةً إلى الأمير « شارلَ » ووَهبَهَا أحدُ سَراةِ المدينةِ فرَساً فارِهاً لركُوبِهَا .

لَبِست « چانُ » لباسَ فتيَانِ عَصْرِهَا ، وخرَجَتْ مِن المدينةِ على صهْوةِ الفرسِ الذى أُهدِى إليهَا ، يرافقُهَا اثنَانِ من الأشدّاءِ الصّالحِينَ . وسَارتْ نَحو الغربِ ، قاصدةً الأميرَ « شارلَ » .

كان ذلك فى الثالث والعشرين من شهر « فبراير » سنة ١٤٢٩ م .

وبعد سفر طويلٍ مُضْنٍ قاستْ فيه بَرْدَ الشتاء — وكانَ زمهريراً — وصلتْ إلى بلدٍ صغيرٍ ، يُدْعَى « فِيرْبُوَا » . وفى هذا البلدِ كنيسةُ « كترينَ » أقربِ القِدِّيساتِ إلى قلوبِ عامَّةِ الشعبِ الفرنسىِّ إذْ ذاكَ ، وأكرَمِهِنَّ عندهم ، وأعلاهُن كعْبًا ، وأكبرِهِنَّ مقاماً .

وكان يقصِدها رُكبانُ الحَجيجِ من كلِّ صَوْبٍ ونِحلةٍ ، ويُغالُونَ فى الاعتِقادِ فيها ، إلى حدٍّ أنَّهم كانُوا يَنْسُبون جُلَّ مَا كانَ يُصِيبُهم — مِن الله — منْ خَيْرٍ ، ومَا كانَ يُصِيبُهم — منْ أنفسِهم — من شَرٍّ إليها ، وَيَرْوُونَ فى ذلك قِصصاً غريبةً ، مَبْعَثُها الجَهْلُ ، وأساسُها الوهمُ . وكانتْ « جان » مُصدِّقةً بكل ما يُروى عنها ، كما كانَتْ تَعتقِدُ — مع ذلك — أنَّها مَبْعَثُ الأصْواتِ التى تُنادِيها ، والهواجِسِ التى توحِى إليها ما تُوحِى .

مَكَثَتْ « جانُ » بضعةَ أيامٍ فى « فِيرْبُوا » تَستلْهِم القديسةَ ، وَتَتَبَرَّكُ بها ، وَهُنَاكَ استَكْتَبَتْ أحدَ النَّاسِ رسالتَين ، بَعَثَتْ بإحداهما إلى وَالديها ، تسأَلُهُما فِيها الصفْحَ عنها ؛ لسَفرِها من غير أنْ يأْذَنَا لَها ، وَبَثَّتْهُمَا شَوقَها وحَنِينَها إليهما . وشَاءَ القَدَرُ أن

لا تَرَى والدها بعدَ ذلكَ إلاَّ مرَّةً واحدةً ، وأن لا تَرَى والدتَها أبداً .
وَبعثَتْ بالرسالةِ الأخرى للاميرِ ، تخبرُهُ بقُدُومِها .

٣ — مقابلة « چانَ » للأمير شارل

وَرفعُها الحصارَ عن أورليانَ

وَصلتْ «چانُ» إلى «شينونَ» التى كانَ يُقيم فيها الأميرُ «شارلُ» ، وَحلَّت ضيفةً فى بيتِ سيدةٍ طيبةِ القلبِ ، كريمةِ الخُلُقِ ، ولَبثتْ بضعةَ أيَّامٍ قبلَ أن يُؤذَنَ لها بالمثولِ بينَ يدى الأميرِ ؛ وذلك لأنَّ بعضَ خُلَصائِهِ أشاروا عليـــه بأنَّه لا ينبَغى له أن يَراها ، وَلكنَّه لأمرٍ فى نفسِه دَعاهَا إلى القصر ، فلبَّتْ الدعوةَ فَرِحةً ، وَأُدخِلتْ إلى بَهْوٍ فسيحٍ يَموجُ بالأشرافِ وَالأتباع ، وكان عليهم ثيابٌ فاخرةٌ من خزٍّ وَديباج ، وكانَ عَلَى الأميرِ ثوبٌ مجرَّدٌ . ومن غيرِ أن يُشار إليه ببنانٍ ، نَحَتْ « چانُ » نحوَه ، وَجثَتْ أمامَه على إحدَى رُكبَتيْهَا ، وَقالتْ له : « أيها السَّيدُ المهوبُ ، أنتَ الأميرُ ، وقد أتيتُ أسعَى إليكَ » . فأشَار الأميرُ إلى أحدِ الأشرافِ — وكان مرتدياً حُلَّةً فاخرةً — وقال لها : « هَذا هو الأميرُ » . فَقَالتْ « چانُ » للأميرِ : « ليسَ هُوَ ، وما أتيتُ إلاَّ إليكَ وَحدَكَ » .

فعجبَ الأميرُ جدَّ العجبِ مِنْ معرفتِها إيَّاهُ ، من غيرِ أن تكونَ قد رأتْه من قبلُ ، وعَلَى الرغمِ مِن أنَّه كانَ فى رَيْبٍ منْ أمرِها أذِنَ لَها بالاختلافِ إلى مجْلِسِه أنَّى شاءتْ .

لم تلبثْ « جانُ » طويلاً فِى حاشيَةِ الأميرِ حتى خلبَت العقُولَ بعذْبِ حديثِها ، وأقْنعتْهُمْ — إلَّا نفرًا قليلاً منْهُمْ — بطهارةِ ذيلِها ، وصِدْقِ رسالتِها . وسَرْعَانَ ما الْتفَّ حولَها عددٌ كبيرٌ من أبناءِ فرنسَا المخلِصين .

ولقَد كانَ « لجانَ » من الصِّفاتِ التى تَرُوضُ الْجَمُوحَ ، وتُسْلِسُ قِيادَ العَنيدِ — حَظٌّ وَافرٌ ، ونصيبٌ كبيرٌ . وأظهرُ هذهِ الصفاتِ أثراً فى نفوسِ الجَماهيرِ والتَّابعينَ هِىَ قُوَّةُ الإرَادَةِ ، وصدقُ العَزيمةِ ؛ لأنَّ الجُموعَ — كما يقول « جوستاف ليبُن » — تُصْغِى دائمًا إلى قولِ ذى الإرَادَةِ القويةِ ، الذى يعرِفُ كيفَ يتَسلَّطُ عليها . وَمَتى صارَ الناسُ جماعةً فقَدُوا إرَادَتَهُم ، والتفُوا حولَ مَن كانَ لهُ شىءٌ منها .

سرَت الحماسة فى الناسِ سَرَيانَ الماءِ فى العُودِ الأخضَرِ ، واشتَعلَتِ الْحمِيَّةُ والغَيْرَةُ فى نفوسِهم اشتعالَ النَّارِ فى جَزْلِ

الغضا ، واعتقدوا أنّ النصرَ أصبحَ عَلَى الأبوابِ ، وأنه ما عليهم إلا أن يُقابلوا أعداءهم فى ميدانِ القتالِ حتى يَفرُّوا هَارِبِينَ . هَذِه هى القُوَّةُ المعنَوِيةُ التى فقدَتْها الجيوشُ الفرَنسِيةُ منذُ حينٍ ، والتى ردَّتْها إليهمْ فتاةٌ ضَعِيفةُ المُنْةِ . وَتِلكَ هِىَ الثِّقةُ بالنفسِ التى غادرت فَرَنسا حيناً من الدهرِ ، فأرْجَعتْها إليها فتاةٌ ساذَجَةٌ ، وهىَ الشجاعةُ التى صَفِرَتْ منها قلوبُ الرجالِ ، فَفُتَّ فى عَضُدِهِمْ ، وكانَ ما كانَ من أمرِ انخذالِهِمْ ، فَنفَخَتْها فى قلوبِهِمْ ذاتُ سِوَارٍ .

جُمِعَتِ الجنودُ ، وَعُقِدَتِ الألوية والبُنُود ، وَصُنِعَتْ دِرْعٌ بيضاء « لجانَ » ، لتقيَها السهامَ الطائِشَةَ ، وَنُقِشَتْ لها رايةٌ لِتَحْمِلها ، وسَارَتْ عَلَى رَأْسِ جيشٍ حَرَّمَتْ عَلَى أفْرَادِهِ شُرْبَ الخمرِ ، ولَعِبَ المَيْسِرِ ، وأمرَتْهُمْ بالصَّلاةِ ، ونَهتهُمْ أن يجعلوا اللهَ عرضةً لأيْمَانِهِمْ . ولم تزَلْ سائرةً حَتَّى وصَلَتْ إلى نهرِ « الوارِ » فَعَبرَتْه ، ودَخلَتْ « أورليانَ » فى الغَسَقِ على نور المشَاعِلِ ، وأقْبلَتِ النساءُ يلثمْنَ أذْيالَها ، ودَبت الحماسَة فى حامِيَةِ المدينةِ ، وكانَ الأعْداءُ قد ضيَّقوا عليْهَا الخِنَاقَ كما سَبَق أن فصَّلْنا . وهكذَا بَدَّلَ اللهُ خوفَهُمْ أمناً .

وعَلَى النقيضِ من ذلك دبَّ الذُّعرُ فى قلوبِ الإنجليز ، وَلم تلبَثْ « جانُ » أن هَاجَمتْ حصونهم . واستولَتْ عليها واحدًا فواحدًا ،

« جان » تهاجم حصنا من حصون الأعداء

وأظهَرَ جنُودُها شجاعةً لم يَعْهَدْها فيهم أعداؤهم مِن قبلُ . ولم تكن « جانُ » تُصغِى إلى نصائح قوّاد جيشها المجرَّبين ، ولكنّها

كانتْ تصغى إلى وَحْى ضميرها ، فنَجَحتْ حيثُ كانَ يُقَدِّر القوّادُ الفَشَلَ ، ونَجتْ مدينةُ « أورليانَ » ورَفعتْ « جانُ » عنها الحصارَ فى الثّامن من شهر « مايو » ، فكان يومَ عيدٍ لسكانِها الذين لا يزالون يحتفلونَ — فى هذا التاريخ من كل سنةٍ — بعيد القديسة « جانَ » .

٤ — تتويجُ الأمير « شارلَ » مَلِكًا

رأتْ « جانُ » — بعدَ رَفْعِها الحصارَ عن « أورليانَ » — أنّ خيرَ وَسيلةٍ لجمع شَمْلِ الفَرنسيين ، ولمّ شَعْثِهم ، هىَ أن يُتوَّجَ الأميرُ « شارلُ » فى مدينةِ « ريمس » — حيثُ كان يُتوَّجُ ملوكُ فرنسا السابقون — فيُصبحَ ملكًا شرعيًّا ، يَدِينُ لهُ الفَرَنْسيون جميعًا بالطاعةِ ، ويكونَ رمزًا لأمانيهم ، ومعقِلَ آمالِهم ، وقِبْلَةَ رَجائِهم ، فيؤلّفَ بينَ قلوبهم لصالح الوَطنِ . ولكنْ كيفَ السبيلُ إلى « ريمسَ » ، والشُّقَّةُ بَعيدةٌ ، والطريقُ إليها تَحُفُّها حصونُ الأعداءِ ، ذاتَ اليمينِ وذاتَ اليَسارِ ؟ ولِذا تَرَدَّدَ الأميرُ ، وأخَذَ يعقد مجالسَ الشُّورَى ، فلمْ يَرُقْ ذلكَ فى نظرِ « جانَ » ، فذهبتْ إلى الأميرِ وقالتْ له : « لا تُكثِرْ أيها الأميرُ من التشاوُرِ فى الأمرِ ، وتعالَ إلى « ريمسَ » لتَتسلَّمَ تاجَكَ » . ولكنَّ الأميرَ خافَ عَلَى نفسِهِ الأَسْرَ

أو الهَلاكَ ، وَطابَقَهُ على ذلك مستشارُوهُ ، وَحذّروه من السفرِ إلى « ريمسَ » ، ما دَامتْ طريقُها محفوفةً بأخطار ، فحفزَ ذلك « جانَ » إلى السعى فى الاستيلاء على الحصُونِ التى يَراهَا المُتَخَرِّصُونَ من مستشارى الأميرِ مَبعثَ الخطرِ على حياتِه .

استولَت « جانُ » على أولِ حصنٍ بعدَ قتالٍ شديدٍ سالتْ فيه الدماءُ أنهارًا ، وَأُصيبَتْ هى فى أثنائِه بحَجرٍ كبيرٍ فى رأسِها ، ثم هاجمت حصناً آخرَ ، وَخَفَّ الجيشُ الإنجليزىُّ بقيادةِ « تالبوتَ » — أمهرِ قُوادِه وَأشجَعِهم — ليحصُرَها وَجيشَها بينَ نارَين ، فَكرَّتْ « جانُ » عَلَى الحصنِ ، وَاستَولتْ عليهِ عَنْوةً ، قبلَ وصولِ « تالبوتَ » وَجيشه ، ثم رَجعَتْ لمقابَلتِه .

علِم « تالبوتُ » بتَقدّمِها ، فَدبّر مكيدةً للقَضاءِ عَلَى جيشِها ؛ إذ أمَر أنْ يختَبِئَ حاملُو القِسىّ من جيشهِ فى الأحْراشِ ، عَلَى جانبى الطريقِ التى لا بدَّ « لجانَ » من سلوكِها ، لِتَصِلَ لجيشِ الأعداء . وَرَبَضَ « تَالبوتُ » ببقيةِ جيشهِ خلفَ تلٍّ مرتفِعٍ ؛ حتى إذا مَرَّ الجيشُ الفَرنسىُّ بينَ الأحراشِ تصيّده الكمينُ بالسّهامِ ، وَتَلقّى الجيشُ الرابضُ فلُولَه ، وَأمعَن فيها تقتيلاً .

كاد الجيش الفرنسىُّ يقَعُ فى الفَخِّ الذى نُصِب له ، لَولا أنَّ وَعْلاً سنَح للمُختَبِئين ، وَكانُوا فى الأصلِ صَيَّادين ، فأنْسَاهُمُ فَرحهُم برؤيةِ الصَّيد الحِيطَةَ وَالحذَرَ ، وَصَاحُوا بهِ ، وَرَماهُ أحَدُهم بسهمٍ فأرْدَاهُ ، فسمع ضوضاءهم كشّافُو الجيشِ الفَرنْسىِّ فعادوا أدراجَهُم ، وَأخبروا « چانَ » بالخَبر . وَلَمَّا علِم الإنجليزُ أن حيلتَهم قد افتضَحَت ، ارتَبكُوا فى أمرِهم ، وَسُقِطَ فى أيديهم ، وَسَرْعانَ ما اشْتبكَ الجيْشَانِ ، وَلم تَدُمِ المعركةُ طويلاً ؛ إذْ هُزِمَ الإنجليزُ شرَّ هَزِيمةٍ ، وَوَلَّوْا لَا يَلْوُونَ عَلَى شىء ، وَوَقَع قائِدُهم أسيرًا فى أيدِى الفَرنْسيينَ .

وَلقد كانَ للفَرنسيينَ — بعدَ هذا الانتصارِ الباهِرِ — أنْ يُضَيِّقُوا الخناقَ عَلَى أعدائِهم ، مُستَغِلِّين ارْتباكَهم ، وَتمزيقَ شَمْلِهم ، من قَبلِ أن تَأتيَهم النَّجدةُ من بلادِهم . وَلكنَّ مستَشَارى الأميرِ « شارلَ » كانَ فى قلوبِهم مرضٌ ، فَمَلُّوا الحربَ خَوَرًا وَجُبناً ، وَحَسَداً « لچانَ » وَأصدقائِها المخلصين .

وَكانَ يَنبغى « لچانَ » أن تهاجِمَ « باريسَ » مَعْقِلَ الإنجليزِ ، فتَضْرِبَهم الضربةَ القاضيةَ ، وَلكنَّهَا رأَتْ أنَّ الإسراعَ فى تَتويجِ الأميرِ « شارلَ » فى « ريمسَ » ، رُبَّمَا يُبدِّلُ الحالَ غَيْرَ الحالِ .

وبعدَ لأْيٍ تحرَّكَ الأميرُ ، ونفَضَ عنه الخُمولَ الذى كَساه طويلاً ، واستَدعَى « چانَ » ومَنَحها وأخَويْها ألقابَ الشَّرَفِ والسِّيادَةِ ، وأغْدَقَ عليهم أعْطِيَاتِه ، جزاءً وِفاقًا لبَلاءِ « چانَ » فى خِدمَةِ وَطنِها .

وسَار الأميرُ تصحَبُه « چانُ » إلى « ريمسَ » ، ووَصَل إليها ، وخَرَجَ القُسُوسَ والرُّهبانُ والأهلون لمقابَلَتِهم ، والترحِيبِ بمَقْدَمِهم . وتُوِّجَ الأميرُ فى حَفْلٍ رائِعٍ ، ورَكَعَتْ « چانُ » أمامَه ، وبَكَتْ من شِدَّةِ التأثُّرِ ، واستَبْكَتِ الفُرسَانَ الأبطالَ ، الذين أخلَصُوا لها ، وأبْلَوْا مَعَها بلاءً حسناً . ثُمَّ قامتْ وقالتْ مُخاطِبةً الملِكَ : « أيُّها الملِكُ ! لقَد صدَقَ اللهُ وَعْدَهُ ، ونَصرَ عَبْدَه » . وكانتْ هذه أوَّلَ مرَّةٍ تُخاطِبُ فيها « چانُ » الملِكَ « شارلَ » بلقَبِ ملكٍ .

وهُناك بين الجمعِ الحاشِدِ ، كانَ يقف رَجُلٌ قَرَوِىٌّ حَسَنُ الثِّيابِ ، يَذْرِفُ دموعَ الفَرَحِ ، ذلك كانَ والدَ « چانَ » ، الذى رأتْه لأوَّلِ مرَّةٍ منذُ أن غادَرَتْ « دُمْرِمى » .

وبعد أن انتهتْ مراسيمُ حَفْلِ التَّتْويجِ طَلَبَ الملِكُ من « چانَ » أن تختارَ هَدِيَّةً كائِنَةً ما كانتْ ، ليقدِّمَها لها اعترافًا بفَضلِها ، وإقراراً بأعمالِها الخالِدةِ فى سبيلِ وَطنِها ومَلِكِها ، فلم تفكِّر « چانُ »

فى نفسِها ، ولكنَّها ذكرَت وَطنَهَا الأصغرَ : قَرْيَتَهَا « دُمْرِمى » وأهلَها ، فرَجَت الملكَ أنْ يكونَ جَزاءها إعفاء أهل القريةِ من الضرائِبِ عَلَى اختلافِ أنواعِها ، فأُجيبَتْ إلى طَلبِها ، وظلَّ أهلُ « دُمْرِمى » بعدَ موتِها ثَلَثمائةِ سنةٍ أحراراً ، لا تُجْبَى منهم أيَّةُ ضريبةٍ ، وكانَ يُكْتَبُ أمامَ اسمِ « دُمْرِمى » فى سجل الضرائبِ : « لا شَىءَ مِن أجْل العذراء » .

٥ — أسرُ « چان دارك »

رَجَتْ « چان » الملكَ أن يُعِدّ العُدَّةَ لمهاجمةِ « بَاريسَ » . ولكنَّه كعادَتِه تَرَدَّدَ ، واستشارَ فأُشيرَ عليه بالتَرَيُّثِ ، وراسلَه الفَرنسيون المُمَالِئون للأعداء ، وأوْهَموه أنهم على استعدادٍ لتسليم المدينةِ من غيرِ حربٍ ولاَ قِتَالٍ . وكانَ غَرَضُهم كسبَ الوقتِ ، حتّى تأتِيَهُمُ النَّجْدَةُ من إنجلترا ، فَخُدِعَ الملكُ بأكاذِيبِهم ، وعَصَى « چانَ » ، وَجاءت النجدةُ إلى الأعداءِ فَنشِطوا ، واستَرجَعوا مُدُنًا كثيرة كانَتْ « چان » قدْ انتَزَعتْها منهُمْ عَنْوَةً ، وبَدَأَ اليأسُ يَدِبُّ إلى قَلبِ بَطَلَة فرَنسا ، وزَادَتْ مخاوِفُها ، لِمَا رأَتْهُ مِن ضَعْفِ المَلِكِ ، وخَوَرِ عَزِيمَتِهِ ، وَأخذتْ هواجسُها تُنـــذِرُها بسُوءِ العَاقِبةِ وَبالأَسْرِ .

والأسْرُ معناهُ إحراقُها حيَّةً ؛ لأن الإنجليز كثيراً ما هَدَّدُوها بذلك ، ولكنَّ هـذا كلَّه مَا كَان لِيَثْنِيَ عَزْمَتَها عن خوضِ غِمارِ الحربِ كلَّما سنَحت الفرصةُ .

حاصرَ الأعداءُ بلدةَ «كامْبين» ، وسَمعت «جانُ» بذلك فصمَّمت عَلَى إنجادِهم ، وَرفعِ الحِصَارِ عنهم ، أو تموتَ معهم ، فسارتْ عَلَى رأسِ ثَلثمَائةِ رَجلٍ تَبغى الوصولَ إليها .

وَكانت هـذِه البلدةُ واقعةً عَلَى الضَّفةِ اليسرى لنهرِ «الوار» ، تَحُفُّهَا من الخلفِ غَابَةٌ كثيفةٌ ، فاخْترقت الغابة .

وصلتْ «جانُ» إلى البَلَد ، وقابلها السكانُ بالفَرح والسرورِ والتهليلِ ، وكانَ يصلُ هذا البلدَ بضَفَّةِ النهرِ اليمنَى — حيثُ كانَ يُعَسْكِرُ الأعداء — جسرٌ طويلٌ مُحَصَّنٌ ، يَنْتَهِي إلى مَرْج متّسع يعلوه الماء أحياناً ، ولذلكَ أقيمَ فى وَسَطِه طريقٌ عاليةٌ ، تَنْتَهِي إلى بلدةٍ أخرى يحتلُّها فريقٌ منَ الأعداء . وَعَلَى بُعْدِ ميلٍ و نصفِ ميلٍ عنْ يمينِ الطريقِ ، يَقَعُ بلدٌ آخرُ يحتلُّهُ فريقٌ آخرُ من الأعداء .

وفى نحو الساعةِ الخامسةِ ، من مَسَاء اليومِ الثَّالِثِ وَالعشرين من شهرِ «مايو» ، خَرجتْ «جانُ» عَلَى رَأسِ كَتيبَةٍ لاَ تَعْدُو ثلثمَائة

جندى من أتباعِها ، وهَاجَمت البلدَ الأولَ ، وهَزَمتِ الأعداءَ مراتٍ عِدَّةً ، ثُمَّ أُنجِدُوا ودَفعوها إلى الوَراء ، ولكنَّها لم تلبثْ أن كرَّتْ عليهم ، وَأَجْلَتْهم عَن مواقِعِهم .

وفى هَذِهِ اللحظةِ انْقَضَّ علَيها من اليمين فريقُ الأعداء الآخرين ، وأحاطُوا بها وبأتْباعِهَا ، الَّذِين تَفرقُوا أَيْدى سَبا ، فانحدرت «جانُ» بجوَادِها إلَى المرْج ، ولكنَّهَا وَجَدَتْ أَنَّ الأعداءَ بهَا مُحيطونَ ، وَنَادَوْهَا : أَنْ سَلِّمى ، فَرَفضَتْ بإباء وَشَمَمٍ ، وَدفعت جَوادها فى زُمْرَةٍ منهم ، مفضِّلةً الموتَ على الأسرِ . فَتَلَقَّوا بِهَا وَرَجَّلُوهَا ، وَقَادُوهَا أسيرةً من غيرِ أَنْ يَمَسُّوهَا بِسوء ؛ طَمَعًا فى الفِدْيَةِ ، ولكن لم يتقدم أحد من أصْدقَائِهَا بالفِديةِ المطلوبةِ .

أرسل قسوس « بَاريسَ » فى طلبها لِيُحاكِموها أمامَ محكَمَةِ التفتيش ، ولكنَّ آسِرَها — وكان فَرنسيًّا من الحزبِ المالِئ للإنجليز — لَمْ يَشَأْ أن يُسَلِّمَها إليهم ، راجيًا أن ينَال فِدْية ثمينة ، فَسَجَنَها فى حصنٍ من الحصونِ . ولمَّا ملَّ الانتظَارَ بَاعَهَا للإنجليز بثَمنٍ بخسٍ ، دراهِمَ معدودةٍ ، فنقلُوها إلَى مدينةِ « روانَ » وسامُوهَا سوءَ العذابِ ، وصَنَعُوا لها قفصًا حُبِسَتْ فِيهِ ، وَوُضِع القَفَصُ فى غرفةٍ

« جان دارك » وقد تعلق بها جماعة من الأعداء حتى ترجلت

بحكمة الغلق ، وقام بحراستها ليل نهار خمسة جنود شاكو السلاح ، يحصون عليها حركاتها وسكناتها . ألا ساء ما كانوا يفعلون.

٦ — محاكمة « چان دارك »

قامت « چان » وهى لا تزالُ لَدْنَةَ العودِ ، غضَّةَ الإهَابِ ، باعمالٍ مجيـدةٍ يَعْجِزُ عنها أبطالُ الرجالِ ، فاتَّهَمها أعداؤُها بالمرُوقِ من الدِّين ، والاستعَانَةِ بالسِّحر ، وَطَابَقَهُم عَلَى ذلِكَ كثيرٌ من قُسُوسِ فَرنسا وأساقِفَتِهَا ، ولذلك لم يكَدْ يُسْلِمُها آسرُها إليهم حَتى سارَعوا إلى محاكمتِها .

استمرَّت المحاكمةُ ثلاثَةَ أشهرٍ متتابعة ، وكانت اضطهاداً بيِّنًا ، وظلماً صارخًا ، وَتعنتًا ظَاهِرًا ، فكان يصيح بها الحُكامُ صِياحًا ، ويوجهون لها التهم جِزافاً من غير أن يَرْعَوْا إلًّا ولا ذِمّةً ، أو يَحْفَظُوا لَهَا حُرْمَةً ، ولكنَّها كانت تَرُدّ عَلَى أسئِلَتهم البـذيئةِ بكل أدبٍ ورَزَانَةٍ .

وَلم يُسمَحْ لها بأن تُنيبَ عنها مُدافعًا ، أو تَرْفَعَ أمرَها إلى مجلسِ « بازلَ » الدينىِّ الأعْلَى . وحَاوَلوا أن يجْبِروها على الاعترافِ بجريمةٍ لم تَقْتَرِفها ، مستعملين كل وَسيلةٍ للإرْهابِ ، وَلكنها صَمَدَتْ لهم ، وَأفْحَمَتهُمْ فى رُدُودِهَا عَلَى أسْئِلَتِهم .

وقد قرّوا — بَعْد أنْ أعيَاهم الأمرُ — تَعذِيبَها ، فأخَذوهَا إلى

جان « دارك » أمام محكمة القسوس

سِرْدَابِ العذابِ الأليم ، فَرأَتْ آلاتٍ جَهَنَّمِيَّةً لتمزيقِ الأجْسَامِ ، وأُخْرَى لِبَقْرِ البُطونِ ، وأُخرَى لِشَيِّ النَّاسِ — وَهُمْ أحياء — شَيَّ اخْرافِ أو المَجُولِ ، وَرأت الجَلَّادَ عَلَى أُهْبَةِ الاسْتِعْداد . لَمْ يَدْخلْ هَذَا السِّردابَ إنسانٌ قطُّ إلَّا وَخانَه جَأْشُه ، وخَارَتْ قُوَاهُ ، واعْتَرفَ

بكلِّ شيء يُريدُ مُعذِّبُوهُ أن يعترفَ بهِ ، ولكنَّ « چانَ » لم تخفْ ولم تجزعْ ، وقالتْ لهمْ ساخرةً منهمْ : « عذِّبونِي ما شئتمْ ، قطِّعوا جسمِي إربًا إربًا ، فكلُّ ما أقولُه فى أثناءِ التعذيبِ لا يكونُ صحيحًا ، وسأنقضُه بعد ذلكَ » . فتأثَّرَ أحدُ الإنجليز الحاضرين ، ووَدَّ من صميم فؤادِه لو تكونُ إنجليزيةً .

وانتهت المُحاكمة بما انتهتْ إليهِ مُحاجَّة الذِّئبِ للحَمَلِ ، وحُكِمَ عليها بالموتِ حرقًا ؛ فيا لظُلْمِ الإنسانِ لأخيهِ الإنسانِ ! ! !

جرُّوها إلى أحدِ ميادينِ مدينةِ « رُوان » وأشعلُوا النارَ فيها ، وصعدتْ رُوحُها راضيةً مطمئنةً لِما أدّتْ من واجبٍ ، ولِما قامتْ بهِ من تضحيةٍ . ولقد جمعَ أعداؤُها رمادَها ، وذرَوْهُ على وجهِ المحيطِ ، فلمْ يبقَ من « چان دارك » شيء : لا من جسمِها الفانِي ، ولا من ملابسِها ، ولا من أسلحتِها . ولكنَّها ستبقَى — إلى الأبدِ — بطلةً من بطلاتِ التاريخِ ، ووطنيةً من الوطنيّاتِ المُخلصاتِ ، ومثالاً للتضحيةِ ونُكرانِ الذّاتِ .

ولمثلِ هـــذا فليعملِ العاملونَ

القصة السادسة

الْأَبْطَالُ الثَّلَاثَةُ

قصة رومانيَّة

كانَ يحكُمُ مدينَة «رُومَة» وما جاوَرَها من قُرًى ، ملوكٌ صَالِحُونَ ، بَنَوا القِلاعَ ، وَشَيَّدُوا الحصونَ ، وحكَموا بالعَدْلِ والقِسْطَاسِ المستقيم بين النَّاسِ ، وَسَعَوْا فى ترقيةِ شئونِهم ، فَسَعِد الناسُ ، وَعَمَّهم الرَّخَاء ، وَاطْمَأَنُّوا إِلَى حُكْمِهم ، وَبادلُوهم بالعدلِ رِضًا وَحُبًّا وَوِلَاءً . ثم خَلَفَهم خَلْفٌ أساءوا السِّيرةَ ، وَشُغِلُوا عن تصريف شئونِ الدولةِ بلذَّاتِهم وَشَهَوَاتِهم ، وَسَامُوا الذين حاولُوا إصلاحَهم سُوءَ العذابِ ، وَنَكَّلُوا بالذينَ سَعَوْا فى تقويمِهم نَكَالاً شَديداً ، فَضَاقَ النَّاسُ بهِم ذَرْعًا ، وَلَمْ يُطِيقوا معهم صَبْرًا ، وكانَ منهم ملكٌ من أَشَدِّ الناسِ ظُلمًا لرعِيَّتِهِ ، فثاروا عليهِ وَخَلَعُوهُ وطردُوه من مدينَتِهم . وَقَالَ قائلٌ منهم : «لا نُريدُ ملوكاً عَلَى شَاكِلَتِهِ ، فَلْتَكُنْ حكومَتُنَا شُورِيَّةً ، على رأسِهَا حاكمٌ فاضلٌ ، نَنْتَخِبُهُ مِنْ بَيْنِنَا كُلَّ سنةٍ ، إلى أَنْ يُتَاحَ لنا ملكٌ صالحٌ نَكِلُ إليهِ أُمورَنا ، وَنُسَلِّمُهُ مقاليدَ أعمالِنَا » .

وقد أوْغرَ هذا صَدْرَ الملكِ المخلوعِ ، فلجأ إلى إحدى الممالكِ المجاورةِ ، واستجارَ بملكِها ، وكانَ اسمُهُ « لارْزبُورْسِينا » وقصَّ عليهِ قصَّتَهُ . فرثَى لحالهِ ، ووَعَدَهُ بالمُساعَدةِ .

أعدَّ « لارْزبُورْسِينا » العُدَّةَ في أقربِ مُدةٍ ، وسارَ على رأسِ جيشٍ جرَّارٍ لفتحِ « رُومَة » ، وإرجاعِ الملكِ المخلوعِ إلى عرْشِهِ .

وما أنِ اخترقَ حُدودَ مملكتِهِ حتى بدأ جُنودُه ينهبُون أموالَ الرُّومانيِّين القرَويين ، ويُحرِّقونَ قُراهُم ، ويَسْبُونَ نِساءَهم . وانتقلَ الخبرُ من قريةٍ إلى قريةٍ ، فذُعِرَ السكانُ وخافُوا على أنفسِهم الهلاكَ ، وعلى أموالِهم النَّهبَ ، فلاذُوا بالفِرارِ بأموالِهم ، ووصلُوا إلى « رُومَة » ففتحَتْ لهم أبوابَها .

وكانت تُحيط بمدينةِ « رُومةَ » أسوارٌ عاليةٌ قويَّةٌ ، تعزُّ على مَنْ رامَها ، تتخلَّلُها أبراجٌ منيعَةٌ ، تطولُ على مَنْ حدَّثتْه نفسُه بالاستيلاءِ عليها . وكان يمرُّ بها نهرُ « التِّيبر » ، وهو نهرٌ سريعٌ مُتسعٌ ، يتعذَّر على أيِّ جيشٍ في ذلكَ العصرِ البعيدِ عبْرُهُ بغيرِ جسرٍ . ولم يكنْ يصلُ « رُومةَ » بضفَّةِ النهرِ إلاَّ جسرٌ واحدٌ من خشبٍ ، وكان ضيِّقًا لا يتسعُ لأكثرَ من ثلاثةِ أشخاصٍ معاً .

شاهَدَ العيونُ الذينَ كانوا مُنْبَثِّينَ على ذِرْوَاتِ التِّلالِ وفى الوِدْيانِ غُبَارَ العَدُوِّ ، ولم يَلْبَثُوا أن رَأَوْا بَرِيقَ السُّيُوفِ والرِّمَاحِ ، ولمعانَ الدُّرُوعِ والْخُوذِ ، فأَسْرَعُوا إلى الحِصْنِ الخارجىِّ — وكانَ يَبْعُدُ نحوَ مِيلَيْنِ عن مَدْخَلِ الْجِسرِ — وَأَخبرُوا حَامِيَتَهُ لتكونَ على أُهْبَةِ الاستعدادِ لمقابلةِ الغُزَاةِ .

وَصَلَ الأعداءُ ، ووقَعَ القِتالُ واشْتَدَّ ، وَدَافَعَتِ الْحَامِيَةُ دِفَاعَ المستميتِ ، ولكنْ سَرْعَانَ ما رَجَحَت كِفَّةُ الغُزَاةِ لِكَثْرَتِهِم ، فأرسلَ قائدُ الحامِيَةِ رَسُولًا إلى الحاكِمِ ، لِيُنْذِرَهُ بِقُرْبِ سُقوطِ الْحِصْنِ ، ثم قاتَلَ هو ورِفاقُهُ حتى قُتِلوا جميعاً .

دَعَا الْحَاكِمُ أعضاءَ مجلسِ الشُّورَى ، فسارَعوا إلى الحضُورِ ، واجتَمَعُوا بجانِبِ بابِ الْجِسْرِ ، وَتَشَاوَرُوا فى الأمرِ ، وأَجْمَعُوا أَمرَهُم عَلَى هَدْمِ الْجِسْرِ ، لِيصيرَ نهرُ « التَّيْبر » حائلًا بَيْنَ العَدُوِّ وبَيْنَ المدينَةِ . ولكنْ ما كادَ يَنفَضُّ اجتماعُهُمْ حتى ظهرَتْ طلائعُ العَدُوِّ ، وأَخَذَتْ تَدْنُو منَ الجِسْرِ ، فارْبَدَّ وَجْهُ الحاكِمِ ؛ لشعُورِهِ بالخطرِ المائِلِ ، بَيْدَأَنَّ بَدِيهَتَه واتَتْهُ ، فَصَاحَ بِمِلْءِ فِيهِ : « أيُّها الأبطالُ ! إن مدينَتَكم فى خَطَرٍ ، فَمَنْ يَتَطَوَّعُ مِنكم للدِّفاعِ عنها ؟ أريدُ ثلاثةً منكم لِذَوْدِ الأعْدَاءِ عن الْجِسْرِ حتى نَهْدِمَه » .

فتقدَّمَ « هُوريشْيَصُ » وكان بَطَلاً مغْوارًا مُحَنَّكاً ، وصَاحَ « لبَّيْكَ أيُّها الحاكِمُ ! حياتى فِداءٌ لوَطَنى » . وتَبِعَهُ عَشَرَاتُ الأبطالِ ، وكان أسْبَقَهُم إلى جانبه « هرْمِينيسُ » و « لارْشِيَصُ » .

وفى هذه اللَّحْظَةِ أقبلَ العدوُّ بخَيْلِه ورَجْلِه ، وأوْشَكَ أن يَصِلَ إلى الجسرِ ، فجَرَى الأبطالُ الثلاثةُ ، حتى وصلوا إلى رأسِ الجسْرِ ، ووَقَفُوا مُسْتَعِدِّينَ للقتالِ ، والحرْبِ والنِّزالِ . وهُنَاكَ فى طَرَفِ الجسْرِ الآخرِ ، تقدَّمَ الحاكمُ وبيدِه فأسٌ ، وبَدَأَ يُحَطِّمُ الجسْرَ ، وحَذَا حَذْوَهُ عددٌ كبيرٌ ، لا فَرْقَ بينَ عظيمٍ وحَقيرٍ ، أوْ غنىٍّ وفقيرٍ .

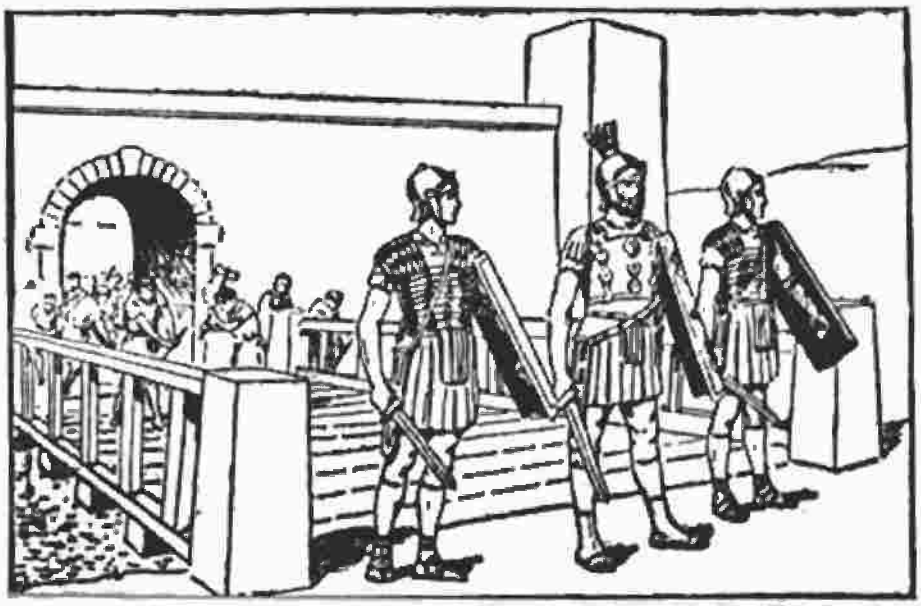

الأبطال الثلاثة على رأس الجسر ، وقد وقفوا مستعدين للقتال

وكانَ فى مُقَدِّمَةِ جَيْشِ العدُوِّ ثلاثةُ أبْطَالٍ معدودينَ . فهَجَمُوا على « هُوريشْيَصَ » ورَفيقَيْهِ ، وتَلَقَّاهُمْ أبْطَالُ « رُومَةَ » كما تَتَلَقَّى

الأسُودُ فرَائِسَهَا ، وَدَارَتْ رَحَى القِتَالِ ، وَسَرْعَانَ مَا وَقَفَتْ بَعْدَ أَنْ خَرَّ الأَعْدَاءِ الثلاثةُ صَرْعَى تَحْتَ أَقْدَامِ أَبْطَالِ الرُّومَانِ . وَتَقَدَّمَ ثَلاثَةٌ آخَرُون ، فَمَا لَبِثُوا أَنْ جُدِّلُوا ، وَعُفِّرَتْ خُدودُهم بالتراب الَّذِى اختلطَ بدِمَائِهم . وَشَاهَدَ الأَعداءُ مَا يَعمله الرُّومَانُ فى الجانبِ الآخَرِ مِن الجِسْرِ فَصَمَّمُوا عَلَى عُبورِ الجِسْرِ قبلَ هَدْمِهِ ، وتَزَاحَمَ أَبْطَالُهُم عَلَى قِتَالِ أَبْطَالِ الرُّومانِ الثلاثةِ . وَمَا زَالَ هؤلاءِ يَقْتُلونَ كلَّ مَنْ تَقَدَّمَ إِلَيهِمْ . حتَّى صُبِغَتْ دُرُوعُهم بدماءِ أَبْطَالِ الأَعداءِ ، وَجُرِحَ « هوريشْيَصُ » جَرْحًا بَالِغًا فى فَخِذِهِ ، ولكنَّه لَمْ يَأْبَهْ به وَظَلَّ فى مَرْكزِهِ كالطَّوْدِ الرَّاسخِ .

لَمْ يَمْضِ وقتٌ طويلٌ حتَّى صَرَّ خَشَبُ الجِسْرِ إِيذانًا بانهيارِهِ ، وَصاحَ الحَاكمُ : « هُورِيشْيَص » ، « هِرْمِينِيس » ، « لَارْشِيص » ، إلى الوراءِ أَيُّها الأَبْطَالُ ، إن الجِسْرَ يَهْوِى . إنَّه يَهوِى . فَكَفَّ « هِرْمِينِيس » و « لَارْشِيص » عن القتَالِ ، وَقَفَلَا إلى المدينةِ ، فوصَلَا إليها بسلام . أَمَّا « هُورِيشْيَصُ » فإِنَّهُ صَمَّمَ أَلَّا يبرحَ مكانَه حتَّى يتمَّ هدم الجسر .

هوى الجسرُ فى النهرِ ، وجرفه التيَّار ، وحِيلَ بينَ بطلِ الأبطالِ وبينَ المدينةِ ، وصاحَ به « لَارَرْبُورسِينا » : « ألْقِ سلاحَكَ وسَلِّم » .

ولكن « هوريشيَص » لم يُعِرْ قولَهُ التفاتًا ، وولَّى وجهَهُ شطرَ نهرِ « التِّيبَر » الَّذى كان يَجرى فى هدوء لايبالى ما حولَه من قعقعةِ السِّلاح ، وصَخَبِ الجيوشِ . وخاطبَه بصوتٍ مرتفع قائلًا : « تَيْبَر ، تَيْبَر ، أيها الأبُ الرحيمُ ، افتحْ صدرَكَ لابنِ رُومَةَ الْوَفِىِّ . » ثم ألقَى بنفسِه فى الماء .

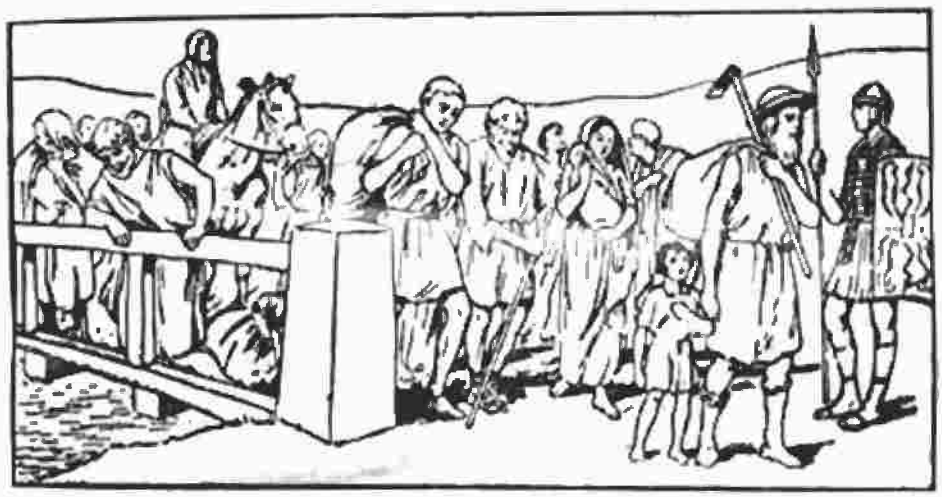

صاح الحاكم : إلى الوراء أيها الأبطال ، إن الجسر يهوى

وكان « هُورِيشيَصُ » مُثقَلاً بِدِرْعه ، مُتْعبًا من قتالِه ، متألِّمًا من جُرْحِه . وكانَ التيَّارُ جارِفًا ، لا يستطيعُ مَنْ فى مِثْلِ حالِه أن يُغالِبَه ، ولكنَّه مع ذلك أخَذَ يُجاهِدُ فى الوُصولِ إلى الشَّاطِىءِ الآخرِ .

حبَسَ الرومانيون الذين رأَوْهُ أنفاسَهم ، وضَرَعَ كثيرٌ منهم إلى اللهِ أن يُنَجِّيَهُ من الغرَقِ ، حتى « لارْزِبُورْسينا » عدوُّه ، فقَدْ

أخذتْهُ الرَّأفةُ به . ووَدَّ من صَمِيم فؤادِه أن يكتُبَ اللهُ السَّلامةَ لذلكَ البَطلِ .

وَشاءَ اللهُ فكتبَ « لِهُورِيشْيَصَ » السَّلامَةَ . ووصَلَ إلى الشاطىء منهوكَ القُوَى ، بعد أن غالبَ الأمواجَ . وَجاهدَ ضِدَّ التيارِ .

أسرعَ إليه الحاكمُ والقُوَّادُ ، وَساعَدُوهُ على الخروجِ من الماءِ ، فتلقَّاهُ الناسُ كما تَتلقَّى الأرضُ العَطْشَى أوائلَ المَطَرِ . ثمَّ سارَ إلى أهلِه بينَ مظاهرِ الفرَحِ والتَّقْدِيرِ ، مُستريحَ الضميرِ ، موفورَ الكَرَامةِ . ونجت « رومةُ » من كَيْدِ أعْدَائِها ، بِبُطولةِ أبنائِها .

فهرست

الموضـــــوع

صفحة

مقـدمة ٣

القصـــة الأولى : وطنية ليديا ٥

القصة الثانيـــة : حامل الرسالة ١٩

القصة الثالثـــة : الطالب الجندى وجواده ٢٤

القصة الرابعـــة : الغلام الشجاع ٤٢

القصة الخامسة : جان دارك ٥٢

القصة السادسة : الأبطال الثلاثة ٧٥